القسم الأول

التحف الفنية في قصور الفاطميين

«the countless gifts, the stately walls,
the royal palces and halls, all filled with gold.
Plate wit armorial bearings wrought,
chambers with ample treasures fraught, of wealth untold».
Longfellow's Translation: Colpas de Maurique.

مقدمة في جمع التحف وتاريخ دور الآثار

إن المتاحف بالمعنى الذي نعرفه في الوقت الحاضر مؤسسات ليست قديمة العهد، وإن يكن اللورد بيكون (Lord Bacon) قد تخيل في مؤلفه نيو اطلانطس (New Atlantis)[1] نحو عام ١٦٢٥ وجود متحف أهلي كبير للعلوم والفنون، فإن أقدم المتاحف المعروفة ترجع إلى آخر القرن السابع عشر، وقليل منها يرجع إلى القرن الثامن عشر، بينما يرجع نمو هذه المؤسسات وازدهارها إلى القرن التاسع عشر، ولا سيما آخره.

والمتاحف معاهد للثقافة تفتح أبوابها للجميع، ويفيد منها الزائر في ساعة أكثر مما يفيده من قراءة عدة ساعات، فلا غرو إذن إن كانت مما تمخضت عنه العصور الحديثة: عصور الديمقراطية والسرعة، والأسفار والرحلات، ولا غرابة إن كان تقدمها وازدهارها مقرونين بتقدم العلم، ونمو روح البحث والتنقيب.

(أ) العالم القديم:

وفي العصور القديمة كانت كلمة «متحف» باليونانية (mouseion) يقصد بها المؤسسات الجامعية التي يأوي إليها العلماء؛ يدرسون ما في مكاتبها من مخطوطات في شتى العلوم والمعارف، وتفسح لهم مجال البحث والدرس والتحصيل، وتبادل الأفكار، ومقارعة الحجج بالحجج، وكان سيد هذه المتاحف القديمة على الإطلاق

---

(١) توفي السر فرانسس بيكون عام ١٦٢٦، وطبع هذا الكتاب في العام التالي، وقد تخيل فيه وجود يوتوبيا (جزيرة خيالية بها المثل العليا من الأنظمة السياسية والاجتماعية) في ناحية من المحيط الأطلسي، ومما تصور وجوده فيها المتاحف والمخابرات التليفونية.

متحف الإسكندرية[١]، ومن المحتمل أن مثل هذه المتاحف كانت تحوي بين جدرانها مجموعات من التحف الأثرية.

ومهما يكن من شيء، فنحن نعرف أن تاريخ جمع التحف يرجع إلى اليونان القدماء، وأن ملوك برجامن (Peregame) -وهي المستعمرة التي أسستها جالية من المهاجرين الإغريق بآسيا الصغرى في القرن الثالث قبل الميلاد- كانوا يجمعون التحف النفيسة، التي ترجع إلى عصور ازدهار الفن الإغريقي؛ بل إنهم أنشئوا مكتبة لم تكن تفوقها في ذلك العصر إلا مكتبة الإسكندرية.

ونسج الرومان على منوال الإغريق في جمع التحف، وتنبه القائد الروماني فبسانيوس أجريبا (Vipasanius Agrippa)، زوج ابنة أوغسطوس إلى أن الأفضل أن تفتح أبواب المجموعات الفنية الخاصة ليراها الشعب، ويعجب بما فيها من آيات الفن.

وصفوة القول: إن معابد اليونان والرومان، وقصور أغنيائهم كانت فيها مجموعات من الصور والتماثيل تتفاوت في الحجم والقيمة.

---

(١) لم يكن الغرض من متحف الإسكندرية الدرس والتعليم فحسب، بل كان البطالسة يريدون أن يظهروا به عظمتهم ورخاء البلاد في عصرهم. راجع: (Mahaffy: A History of Egypt, the Ptolemaic Dynasty) ص(٦١، ٦٢).

(ب) الغرب:

على أن كلمة متحف باليونانية (mouseion) بطل استعمالها بعد أن ذهب متحف الإسكندرية طعمة للنار، وظلت ميتة حتى بعثت في القرن السابع عشر لتكون اسمًا لدور الآثار على اختلاف نوعها.

وإن كنا لا نعرف شيئًا يذكر عن جمع التحف في العصور الوسطى المظلمة، فإننا نعلم أن عصر النهضة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر أحيا الاهتمام بالآثار القديمة؛ إذ بدأ القوم في إيطاليا يفطنون إلى تراث اليونان والرومان، فهبوا يجمعون التحف الفنية؛ كالمخطوطات، وقطع العملة، والأحجار النفيسة، والتماثيل النصفية، والكتابات التاريخية، والأيقونات، ولم يكن ذلك لأن القوم تنبهوا إلى قيمتها الأثرية فحسب؛ بل لأنهم أخذوا يقدرون ما فيها من متعة وجمال، فلم تلبث قصور الأسرات الشهيرة في إيطاليا وفي غيرها من البلاد الأوربية أن ضاقت بما فيها من التحف الفنية.

ثم كان إنشاء المجامع العلمية في النصف الثاني من القرن السابع عشر أكبر حافز على البحث العلمي، فأقبل الملوك والأمراء والأثرياء على تكوين المجموعات الفنية؛ ولكن جمعهم الغريب من التحف، والجميل من الآثار لم يكن له غرض معين، ولم يكن منظمًا كل التنظيم، بيد أن علينا أن نذكر دائمًا أن عددًا كبيرًا من المتاحف الأوربية قام على أساس تلك المجموعات الفنية الخاصة؛ بل إن بعض القصور التي كانت هذه المجموعات محفوظة فيها، وهبها أصحابها إلى أوطانهم أو باعوها، فحوّلت بمحتوياتها إلى متاحف أهلية.

(جـ) الشرق:

وقد عرف الشرق الأدنى في العصور القديمة جمع التحف، على أن ذلك كان لأغراض دينية وجنائزية؛ كما يتجلى لنا مما تكشف عنه الحفائر في معابد قدماء المصريين وقبورهم.

وكذلك عرف الشرق الأقصى، ولا سيما اليابان، جمع التحف الفنية؛ ولكن أكبر الظن أنهم كانوا يجمعونها لأغراض دينية أيضًا، مثال ذلك: آلاف التحف التي أهدتها إمبراطورة يابانية إلى الإله بوذا، صدقة على روح زوجها في سنة ٧٥٦ ميلادية، وحفظت التحف المذكورة في معبد بمدينة نارا، التي كانت عاصمة اليابان في القرن الثامن الميلادي.

(د) العالم الإسلامي:

أما المسلمون فقد عرفوا جمع التحف الغالية منذ اختلطوا بالأمم المعاصرة، وتقدمت مدنيتهم المادية، فكانت قصور الأمويين والعباسيين تضم بين جدرانها شتى الأواني والمنسوجات الفاخرة[1]. على أننا نظن أنهم كانوا يرمون بجمع هذه

(١) لعل أبدع هذه التحف إبريق محفوظ في دار الآثار العربية، وعلى بدنه ورقبته زخارف محفورة بدقة وإبداع عظيمين، وهي تمثل عقودًا تحتها دوائر وأشكال هندسية، ورقبته مخرمة وصنبوره ينتهي بصورة ديك ناشر جناحيه. وقد عثر على هذا الإبريق في بوصير الملق بمصر الوسطى، حيث كانت نهاية مروان الثاني آخر خلفاء بني أمية. ويظن أن الإبريق كان مِلْكًا لهذا الخليفة. راجع: (F. Sarre: Die Bronzekanne des Kalifen Marwan II im Arabishen Museum in Kairo) في مجلة (Ars Islamica) المجلد الأول سنة ١٩٣٤ ص١٠ وما بعدها وراجع أيضا (Wiet: L'Exposition persane de 1931).

التحف إلى الانتفاع بها واستخدامها في حياتهم اليومية، وأكبر ظننا أن الفاطميين هم أول من عمل في الإسلام على جمع التحف الفنية جمعًا منظمًا، ليس للانتفاع بها فحسب؛ بل تقديرًا لقيمتها الفنية والأثرية، وقد وصل إلينا اسم تاجر يهودي في العصر الفاطمي -هو أبو سعد إبراهيم بن سهل التستري- كان تاجرًا في التحف الثمينة النادرة[1].

(١) انظر: (Jacob Mann: The Jews in Egypt and in Palestine Under the Fatimids) (١/ ٧٦، ٧٧) وخطط المقريزي (١/ ٤٢٤).

الفاطميون

والفاطميون كما نعرف أسرة شيعية، قامت في المغرب الأدنى والأوسط حين أقبل دعاة الإسماعيلية على نشر مذهبهم، حتى أفلح عبيد الله -أول الخلفاء الفاطميين- في القضاء على حكم الأغالبة في إفريقية عام (٢٩٦هـ/ ٩٠٩م)، ثم استطاع أن يبسط نفوذه على بلاد المغرب واتخذ مدينة المهدية -على مقربة من تونس- مقرًا لحكمه سنة (٣٠٨هـ/ ٩٢٠م).

وكأن الفاطميين كانوا يشعرون منذ البداية بأن دولتهم في المغرب لم تكن قوية الدعائم، فنراهم يعملون على فتح مصر لثروتها ولضعف حكومتها في ذلك الوقت، ولتكون مركزًا لقيصرية تتسع أرجاؤها فتنافس الدولة العباسية؛ ولكن سعي الفاطميين يفشل في عهد عبيد الله، وفي عهد ابنه وخليفته القائم بأمر الله، ولا ينجحون في بلوغ هذه الأمنية إلا في عهد المعز لدين الله، خليفتهم الرابع، الذي فتحت مصر على يد قائده جوهر سنة (٣٥٧هـ/ ٩٦٩م) فاختطَّ القاهرة، وشيد الجامع الأزهر، ورحل المعز وأفراد أسرته عن المغرب، ونقلوا مقر حكمهم إلى القاهرة، فكان ذلك فاتحة لضياع ممتلكاتهم في شمالي إفريقية، وفي جزائر البحر الأبيض المتوسط؛ إذ لم يلبث عمالهم بنو زيري وبنو حماد أن استقلوا بالحكم في تونس والجزائر، كما سقطت صقلية ومالطة في يد النورمنديين بعد حوادث لا مجال لسردها هنا.

ولكن عوَّض الفاطميين عن هذه الخسارة ازدهار حكمهم في مصر وسورية، فأصبحت القاهرة تنافس بغداد وقرطبة، وازدادت ثروة البلاد، وعمَّ الرخاء،

وصارت الإسكندرية مركزًا عظيمًا للتجارة بين الشرق والمغرب، ثم بدأ الضعف يدب إلى ملكهم الواسع في النصف الثاني من حكم المستنصر بالله، وفي عهد خلفائه، وزادت سلطة الوزراء والجند -كما سنذكر في الصفحات التالية- حتى أسس صلاح الدين الدولة الأيوبية في مصر سنة (٥٦٧هـ/ ١١٧١م).

وقد بنى الفاطميون في مصر قصرين، لم يصل إلينا إلا وصفهما في بعض كتب الأدب والتاريخ، وكانت لهم في المهدية عاصمتهم الأولى، قصور عفت آثارها؛ على أن الجنرال الفرنسي دي بلييه (Général de Beylié) استطاع أن يكشف آثار بعض القصور في قلعة بني حماد، حاضرة الأسرة التي استقلت بحكم الجزائر بعد أن كان أمراؤها عمالًا للفاطميين على تلك البلاد[1].

وعلى الرغم من أن صقلية سقطت في يد النورمنديين سنة (٤٦٢هـ/ ١٠٧١م) -بعد أن كان الفاطميون قد أخضعوها في أوائل حكمهم- فقد ظلت الثقافة الإسلامية والتقاليد الفنية الفاطمية سائدة فيها مدة طويلة تحت حكم النورمنديين المسيحيين، وشيدت في مدينة بلرمو مبانٍ عربية الطراز كقصر القبة (La Cuba) وقصر العزيزة (La Ziza) وهما ليسا عربيين باسميهما فقط؛ بل إن في عمارتهما عناصر إسلامية كثيرة[2].

---

(١) درس الأستاذ جورج مارسيه (G.Marçais) في الجزء الأول من كتابه (Mannuel d'art musulman) -ص١٠٦ وما بعدها- الأبنية التي خلفها الفاطميون وبنو زيري وبنو حماد في شمالي إفريقية درسًا دقيقًا ووافيًا، وحلل ما فيها من عناصر معمارية وموضوعات زخرفية.

(٢) راجع: (G.Marçais: Manuuel...) (١/ ١٨٠ وما بعدها).

كما أن باب كنيسة المارتوران (١١٢٩-١١٤٣م) في بلرمو، وكذلك الزخارف المحفورة في السقف الخشبي بالكابلا بالاتينا[١]، تدل كلها على أن صناعة الحفر على الخشب إبان العصر الفاطمي أثرت تأثيرًا بالغًا في الأساليب الفنية بصقلية، وفضلًا عن ذلك فإن النقوش والصور باكابلا بالاتينا مثال حي لصناعة التصوير التي ازدهرت في العصر الفاطمي، والتي تحدثنا عنها المصادر التاريخية، والتي عثرت دار الآثار العربية حديثًا على مثال لها في قبة حمام فاطمي، كشفت عنه حفائرها في أبي السعود جنوبي القاهرة[٢]. وسوف يأتي الكلام على هذا كله في القسم الثاني من هذا الكتاب.

(١) كنيسة صغيرة بنيت في القصر الملكي ببلرمو سنة (١١٣٢)، وفيها فسيفساء مذهبة وذات ألوان عديدة وجميلة جدًا ويظهر فيها أثر الفن البيزنطي.

(٢) راجع كتابنا: التصوير في الإسلام ص٢١، ٢٢.

الرخاء في العصر الفاطمي

كان زمن الفاطميين من أزهى عصور الفن الإسلامي، وإن يكن عصر المماليك قد بزه في ضخامة العمائر وإبداع زخارفها، فإن الفنون الفرعية[١] أو التطبيقية بلغت أوج عظمتها في حكم الدولة الفاطمية، الذي دام في وادي النيل من سنة (٣٥٧-٥٦٧هـ/ ٩٦٩-١١٧١م)، ولا غرو فقد زادت الثروة في البلاد، وكانت مصر تجني أرباحًا وافرة من تجارة المحيط الهندي، والعلاقات التجارية مع القسطنطينية.

رحلة ناصر خسرو:

ونحن نعرف أن ناصر خسرو، الرحالة الفارسي المشهور طاف في كثير من بلاد العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بعد أن ترك وطنه في وقت انتشرت فيه الاضطرابات، واشتد النزاع بين أمراء الأقاليم المختلفة؛ ولكنه رأى نفس البؤس في كل البلاد التي زارها، اللهم إلا في مصر: فقد وجد رخاءً عظيمًا، وأسواقًا عامرة، وتحفًا فنية نادرة، وهدوءًا شاملًا[٢]، وكان ذلك في عهد

---

(١) «الفنون الفرعية» هي الترجمة التي استخدمناها حتى الآن للمصطلحات الأوربية (Minor arts) (بالإنجليزية) و(arts mineursi) (بالفرنسية) و(Kleinkunst) (بالألمانية)، وربما أمكن تسميتها الفنون الصناعية، أو الفنون التطبيقية، أو الفنون الزخرفية، والمقصود بها هو الفن في الأشياء التي ينتفع بها، ويمكن نقلها، أو التي تتخذ للزينة والزخرف.

(٢) ولد ناصر خسرو في مقاطعة خراسان ببلاد الفرس سنة (٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م) وتلقى في حداثته العلوم المعروفة في ذلك العصر، والتي كان يدرسها العلماء المسلمون في العصور الوسطى، فحفظ القرآن ودرس اللغة والنحو والصرف والعروض والحساب والفقه والحديث والفلسفة والتجويد وعلم النجوم والهندسة، وقرأ كثيرًا في التاريخ والسحر، والتحق بوظيفة في الديوان بمدينة مرو وظل يعيش عيشة ترف وبطالة حتى سنة

الدولة الفاطمية، الإسماعيلية المذهب، وظن ناصر خسرو أن الفضل في رخاء مصر راجع إلى المذهب الإسماعيلي، وأن هذا المذهب كفيل بإنقاذ العالم الإسلامي، فلم يلبث ناصر أن اتصل ببعض رؤساء الشيعة الإسماعيلية في مصر، واعتنق مذهبهم. والظاهر أن الخليفة المستنصر بالله أحسن استقباله، وكلفه بأن يدعو لمذهب الإسماعيلية في خراسان[1].

وقد وصف ناصر خسرو مدينة القاهرة المعزية -نسبة إلى المعز لدين الله الفاطمي- وصفًا شائقًا. وقدر أنها في ذلك الوقت (بين سنتي ٤٣٩ و٤٤١ هجرية؛ أي ١٠٤٧ و١٠٤٩ ميلادية) كانت قد ثبت عمارتها، وأصبح فيها ما لا يقل عن عشرين ألف دكان، كلها ملك السلطان، وكثير منها يؤجر بعشرة دنانير في الشهر، وليس بينها إلا قليل تبلغ أجرته في الشهر دينارين، وكان فيها من الخانات والحمامات ما لا يمكن حصره، وكانت كلها ملك السلطان[2]. أما قصر السلطان نفسه فقد كان في وسط القاهرة، وبينه وبين الأبنية المحيطة به فضاء يفصله عنها،

(٤٣٧هـ/ ١٠٥٤م) حين نراه يضحي بوظيفته ويبدأ عيشة جد وسفر وعلم وتقوى، وهو يذكر في كتاباته أن السبب في هذا التحول رؤيا ظهر لها فيها شيخ طلب إليه أن يكف عن شرب الخمر وعن حياة اللهو والمجون.

(١) والمعروف أن ناصر خسرو عندما رجع إلى مدينة بلخ وقف حياته على التبشير لمذهب الإسماعيلية، ولكن السلاجقة الذين كانوا قد استولوا على مقاليد الحكم في إيران، لاحظوا خطر دعوته واضطهدوه ففر إلى بلاد ما وراء النهرين، حيث توفي سنة (٤٥٣هـ/ ١٠٦١م)، بعد أن عاش هناك سنوات طويلة كتب فيها أكثر أشعاره، وكلها معانٍ فلسفية وبيانات وافية عن مذهب الإسماعيلية، وبينها قصيدة فيها نقد شديد لكبراء الدولة وبيان لفضل الفلاح، الذي يقول فيه ناصر خسرو: إنه يغذي كل ما يعيش على الأرض.

(٢) المعروف أن ناصر خسرو والمقدسي يسميان الفاطميين «سلاطين» مع أنهم كانوا خلفاء. راجع: (Weit: Précis de l'histoire d'Egypte) (٢/ ٢٢٤).

وكان يحرسه في الليل خمسمائة حارس من الفرسان، وخمسمائة حارس من الرجالة، وكانت أسواره عالية؛ فلا يستطيع أحد رؤيته من داخل المدينة، بينما يبدو من خارجها كالجبل، وكان في القصر ألوف من الخدم والنساء والجواري، وله عشر بوابات فوق الأرض، وباب يقود إلى ممر تحت الأرض، يعبره الخليفة راكبًا ليصل إلى قصر آخر، وكان كل كبار الموظفين في قصور الخليفة من الروم أو السود.

وقال ناصر خسرو: إن مدينة القاهرة كان لها خمسة أبواب كبيرة: باب النصر، وباب الفتوح، وباب زويلة، وباب القنطرة، وباب الخليج[١]، ولم يكن بالمدينة سور محصن[٢]، ولكن أبنيتها كانت أعلى من الأسوار المحصنة، وفي كل منها خمس أو ست طبقات فكأنها القلاع الضخمة[٣]، وكانت البيوت في المدينة مبنية بناء نظيفًا محكمًا، وكانت مفصولة عن بعضها بحدائق ترويها مياه الآبار[٤].

---

(١) هي بقايا الأبواب التي شيدت في سور القاهرة على يد جوهر، وقد نبهني الزميل محمد أفندي عبد العزيز إلى مقال للأستاذ كريزول (Creswell) عن تأسيس القاهرة في الجزء الثاني بالمجلد الأول من مجلة كلية الآداب، وفيه حديث طويل عن أبواب القاهرة في عصر جوهر مع ذلك المصادر العربية اللازمة ص٢٧٩ وما بعدها.

(٢) يفهم من ذلك أن السور الذي بناه جوهر حول القاهرة كان قد تهدم في عصر ناصر خسرو. وعلى كل حال فقد كتب المقريزي (الخطط ١/ ٣٧٧) أن القاهرة عمل سورها ثلاث مرات: الأولى وضعه القائد جوهر، والثانية وضعه أمير الجيوش بدر الجمالي في أيام المستنصر، والثالثة بناه الأمير الخصي بهاء الدين قراقوش في سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أول ملوك القاهرة، وقد رأى المقريزي جزءًا من السور اللبن الذي كان قد أقامه جوهر.

(٣) قارن ابن حوقل ص٩٦.

(٤) راجع: Sefer Nameh, relation du voyage de Nasire Khusrau, éd. Et tradpar ch. (Schefer) ص١١٠-١٦٢، وقارن: (Lane-Poole: A History of Egypt) ص١٣٩-١٤١.

وفي الواقع أن هذه الظاهرة التي أعجب بها ناصر خسرو، أعجب بها غيره من الرحالة الأوربيين الذين أتيحت لهم زيارة القاهرة في العصور الوسطى[١].

ووصف ناصر خسرو الاحتفال العظيم بقطع الخليج وخروج الخليفة الفاطمي على رأس جنده وخدمه وأمراء الدولة وموظفي الحكومة للاشتراك في هذا العهد الشعبي الكبير.

وانتقل ناصر خسرو بعد ذلك إلى مدينة الفسطاط جنوبي القاهرة، حيث كانت الحركة التجارية والصناعية، فوصف عظمتها، وبيوتها الشاهقة، وجوامعها الكبيرة، وحدائقها الغناء، وصناعتها الزاهرة، وأطنب في وصف الثروة في أسواقها، والازدحام فيها، وجمال أعيادها، وقال: «لو وصفت هذه الأعياد لما صدقني كثير من الناس ولرموني بالمبالغة والإغراق، فإن حوانيت القصارين[٢] والصياغ، والحوانيت الأخرى مفعمة بالذهب والحلي والبضائع والأقمشة من الحرير والقصب لدرجة لا يجد فيها المشتري محلًا يجلس فيه»[٣].

ومما لفت نظره أن التجار كانوا يبيعون بأثمان محددة، وأن الذي كان يغش الناس كانوا يركبونه جملًا ويضعون في يده جرسًا يدقه، ويطوفون به البلد، وهو يصيح بأعلى صوته: لقد كذبت وهأنذا ألقى عقابي جزى الله الكاذبين.

---

(١) راجع: كتاب القاهرة للملازم اول عبد الرحمن زكي.

(٢) القصارين: جمع قصار من قصر الثوب قصرًا بيضه.

(٣) راجع: سفرنامة، طبعة شيفر ص١٤٦، ١٤٧. وانظر: الترجمة العربية التي نشرها الأستاذ يحيى عبده الخشاب في جريدة كوكب الشرق لما كتبه ناصر خسرو عن مصر في كتابه سفرنامة.

وختم ناصر خسرو وصفه بأنه رأى في مصر ثروة عظيمة، وأموالًا غزيرة، لو أراد وصفها لم يصدقه أحد من بلاد العجم[١].

وقد ذكر أشياء كثيرة عن صناعة لنسج، والخزف، والمعادن في مصر. وسوف نعود إليها في مواضع أخرى من هذا البحث.

وقصارى القول: أن مصر كانت لها المكانة الأولى في العالم الإسلامي في الوقت الذي زارها فيه ناصر خسرو، وأن العراق لم يستطع بعد ذلك أن ينتزع منها تلك المكانة إلا بفضل الأمراء السلاجقة، لذين آلت إليهم مقاليد الأمور فيه والذين امتدت فتوحاتهم حتى أزالوا سلطان الفاطميين عن سورية[٢].

(١) انظر: نفس المرجع ص١٥٥.

(٢) انظر: (C.H.Becker: Islastudien) (١/ ١٥٩).

الشدة العظمى

على أن مصر لم تلبث بعد زيارة ناصر خسرو أن دبَّ إليها الضعف، وكان أن قبض على أزمة الحكم الوزير اليازوري[١]، فأبعد خطر المجاعة؛ ولكنه لم يفلح في استئصال الداء من أساسه، وكان عزله وقتله سنة (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) إيذانًا بقيام الفوضى، وبدء المجاعة، وانتشار الوباء، وتعاقبت الوزارات في الحكم؛ دون أن يكون لها من النفوذ ما تكبح به الجند من الترك والبربر والسودان، فقاموا بكثير من أعمال السلب والنهب، والعنف والشدة. وكانت أم الخليفة [٢] تتخذ الجنود السودانية عونًا لها، وأداة لفرض إرادتها، وكان الجنود الأتراك يأخذون عليها هذا[٣]، واستطاعوا أن يزيدوا نفوذهم حتى تمكنوا برئاسة زعيمهم ناصر الدولة من طرد غرمائهم من السودانيين إلى الصعيد بعد أن هزموهم سنة (٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م) في واقعة كوم الريش، فعاثوا فيه فسادًا وخلا الجو للترك، فقاموا بشيء كثير من أعمال العنف والشدة، ونهبوا قصور الخليفة والمخلصين له، وأخذوا ما كان فيها من تحف فنية، وأحجار كريمة، وبددوا ما كانت تفخر به من مخطوطات ثمينة.

---

(١) راجع: مادة «يازورى» للأستاذ فييت في دائرة المعارف الإسلامية (٤/ ١٢٣٧) من النسخة الفرنسية، وراجع أيضًا: هامش صحفة ٢٥١ من كتاب «الفاطميون في مصر» للدكتور حسن إبراهيم.

(٢) كانت أم المستنصر جارية سودانية الأصل، وقد كانت صاحبة الأمر والنهي في البلاد سنة (٤٣٦هـ/ ١٠٤٥م) عقب وفاة أبي القاسم الجرجرايي وزير الظاهر وصاحب السلطان في بداية حكم المستنصر.

(٣) اقرأ ما كتبه الأستاذ فييت عن جيش الفاطميين في (Précis de l'histoire d'Egypte) (٢/ ١٨٤-١٨٦).

والعجيب أن المقريزي يذكر ما يشعر بأن الحكومة كانت تغض الطرف عما ينهبه الجند من قصور الخليفة؛ لئلا يمتد شرهم إلى الشعب، فيزيدونه بؤسًا وشقاء، فلم تعترضه الدولة، ولا التفتت إلى قدر الكنوز التي كانوا ينهبونها؛ بل جعلتها - على حد قول المقريزي- هي وغيرها فداء لأموال المسلمين، وحفظًا له في منازلهم[1]. ولعل الحكومة كانت تبغي بسكوتها هذا أن تتقي شر ثورة الشعب، وقيام حرب أهلية، تهلك الحرث والنسل.

ولكن مصر كان مقضيًا عليها بالبؤس في ذلك الحين، وانقطعت عن أسواق القاهرة المواد الغذائية التي كانت ترد إليها من الأقاليم، وغدت منعزلة عن بقية أجزاء البلاد؛ إذ بينما كانت السيادة فيها للجند التركية، كان الصعيد في يد السودانيين، وكانت الإسكندرية وجزء كبير من الدلتا في يد فريق آخر من الجند التركية تساعدهم قبائل من العرب والبربر[2]: فقلت الأقوات، وعلت الأسعار[3]؛

(١) خطط المقريزي (١/ ٣٧٦).

(٢) انظر: فهرست كتاب «الفاطميون في مصر» للدكتور حسن إبراهيم، وراجع ما كتب فيه عن الجند الفاطميين.

(٣) لم تكن زيادة النيل غير كافية بدرجة يترتب عليها كل هذا الاضطراب في الأحوال الاقتصادية؛ وإنما كانت الفوضى والحروب بين الجند، وأعمال السلب والنهب شاغلًا عن الزراعة وغيرها من الأعمال السلمية، وفي ذلك يقول أبو المحاسن في النجوم الزاهرة: «كان القحط في أيامه (المستنصر) سبع سنين مثل النبي يوسف الصديق -صلوات الله وسلامه عليه- من سنة سبع وخمسين إلى سنة أربع وستين وأربعمائة، أقامت البلاد سبع سنين يطلع النيل فيها وينزل، ولا يوجد من يزع لموت الناس واختلاف الولاة والرعية، فاستولى الخراب على كل البلاد، ومات أهلها وانقطعت السبل برًا وبحرًا» (٥/ ٣).

فصارت البيضة بدينار، والرغيف بخمسة عشر دينارًا[١]، وحتى الخيل، والبغال، والقطط، والكلاب ارتفعت أثمانها، ولم يكن يصل إلى أكلها إلا أهل السعة والغنى، وما لبثت حلي النساء ونفائسهن أن أصبحت زهيدة القيمة، يعرضنها للبيع فلا يتقدم إلى شرائها أحد، وكذلك ذهب ما في اصطبلات الخليفة من خيل كريمة، وأقبل الأمراء وكبار رجال الدولة على أحقر الأعمال في سبيل الحصول على قوتهم اليومي.

وزادت المسغبة حتى اضطر سكان القاهرة إلى أكل لحم الإنسان، وصار يخطف بعضهم بعضًا من الطرقات بواسطة خطاطيف يدلونها من النوافذ، ثم أصبح القصابون يبيعون لحم الإنسان في حوانيتهم، وجرى المؤرخون المسلمون على تسمية تلك السنين بالشدَّة العظمى[٢]؛ لما كان فيها من مصائب أذلت القاهرة، وأفقدت المستنصر كل شيء؛ بعد أن فرت أمه وزوجته وبناته إلى بغداد وسورية هربًا من الطاعون، ونهب الجند والغوغاء قصره وممتلكاته، فصارت بنت أحد الفقهاء تجري عليه رغيفين كل يوم يسد بهما رمقه[٣].

---

(١) أشار الأستاذ فييت في البحث الذي كتبه في المجلة الآسيوية عن ابن ميسر (ص٨٧، ٨٨) إلى إحدى السبل التي تؤدي إلى المبالغة في بعض ما يكتب في هذا الصدد؛ إذ إن مؤرخًا يكتب أن الرغيف كان بخمسة عشر درهمًا، ولكن مؤرخًا ممن ينقلون عنه قد يكتب أنه بخمسة عشر دينارًا. والفرق بين التقديرين ليس هينًا، قارن مثلًا معجم البلدان لياقوت (٣/ ٩٠٠) (طبعة أوربا) وخطط المقريزي (١/ ٣٣٧).

(٢) راجع: ابن ميسر ص٢٠ وما بعدها، والنجوم الزاهرة لأبي المحاسن (٥/ ١٥ وما بعدها)، والفاطميون في مصر للدكتور حسن إبراهيم ص٢٥٢.

(٣) من المحتمل أن يكون المؤرخون السنيون قد بالغوا في وصف البؤس بالقاهرة في الشدة العظمى؛ لأنهم رأوا فيها انتقامًا إلهيًّا، وجزاء وفاقًا لما ارتكبه الوزير البساسيري حين ثار في العراق، وجعل الخطبة في بغداد باسم المستنصر. والواقع أن أبا المحاسن يعلق على حوادث بغداد حينئذ بقوله في النجوم الزاهرة (٥/ ١٣): «وكان ما وقع للمستنصر هذا تمام سعده،

ومن حينئذ أخذ أمره في إدبار من وقوع الغلاء والوباء بالديار المصرية، وقاسى الناس شدائد، واختل أمر مصر». ومع ذلك فإن وصف هذه الشدة العظمى ليس أهول ما وصلنا في وصف أيام القحط في الديار المصرية، والمعروف أن السنين الأولى من حكم الملك العادل الأول الأيوبي (٥٩٦-٦١٥هـ/ ١٢٠٠-١٢١٨م) كانت فيها مسغبة، يكفي لبيان هولها ما كتبه عبد اللطيف البغدادي في وصفها ومنه: «يئس الناس من زيادة النيل، وارتفعت الأسعار، وأقحطت البلاد، وأشعر أهلها البلاء، وهرجوا من خوف الجوع، وانضوى أهل السواد والريف إلى أمهات البلاد، وانجلى كثير منهم إلى الشام والمغرب والحجاز واليمن، وتفرقوا في البلاد أيدي سبا، ومزقوا كل ممزق، ودخل إلى القاهرة ومصر منهم خلق عظيم واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والأرواث، ثم تعدوا ذلك إلى أن أكلوا صغار بني آدم، فكثيرًا ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون، فيأمر صاحب الشرطة بإحراق الفاعل لذلك والآكل. ورأيت صغيرًا مشويًا في قفة وقد أحضر إلى دار الوالي ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهما أبواه فأمر بإحراقهما». انظر: كتاب عبد اللطيف البغدادي في مصر، طبعة المجلة الجديدة بمصر، ص٦٢ وما بعدها. قارن أيضًا كتاب السلوك للمقريزي، طبعة الدكتور زيادة، (١/ ١٣٢ وما بعدها، ١٥٦، ١٥٧).

مصادر ما نعرفه عن كنوز الفاطميين

إذا نحن أردنا أن نتحدث عن قصور الخلفاء الفاطميين وما كان فيها من كنوز فنية، فإن مرجعنا الأساسي في هذا ما كتبه المؤرخون المصريون ابن ميسر وتقي الدين المقريزي.

أما ابن ميسر فهو محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب المتوفى سنة (٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م). وفي المكتبة الأهلية بباريس مخطوط به جزء من كتاب له اسمه «أخبار مصر» وقد وقف على نشره الأستاذ هنري ماسيه (Henri Massé) فطبعه في المعهد العلمي الفرنسي في القاهرة سنة (١٩١٩) وصدّره بمقدمة قصيرة وألحق به الفهارس اللازمة. وكان المفهوم أن المخطوط المذكور يشتمل على الجزء الثاني من كتاب أخبار مصر.

ولكن الأستاذ فييت (G.Wiet) كتب نقدًا طويلًا وبحثًا مسهبًا في هذا المخطوط والطبعة التي ظهرت منه على يد الأستاذ ماسيه[١]، فأثبت أن النص المخطوط في المكتبة الأهلية بباريس ليس تاريخ ابن ميسر. وليس الجزء الثاني منه بتمامه؛ ولكنه نسخة من مقتطفات من هذا الكتاب، نقلها المقريزي سنة (٨١٤هـ/ ١٤١١م)، ثم وضع أكثر من خمسها في كتابين من كتبه، ونقل أكثر الأجزاء الباقية مع بعض تغيير أو إضافة أو حذف. والواقع أن في آخر المخطوط عبارة تؤيد ما أثبته الأستاذ فييت

(١) انظر: Journal Asiatique (onziéme série, tome XVIII, Juillet-Septembre 1921) ص٧١ وما بعدها.

وهي: «آخر المنتقى من الجزء الثاني من تاريخ مصر لابن ميسر وتم على يد أحمد بن علي المقريزي في مساء يوم السبت أربع عشرة وثمانمائة»[١].

وقد درس الأستاذ فييت في بحثه الذي أشرنا إليه المصادر التي اعتمد عليها ابن ميسر، ولا سيما ابن زولاق المتوفى سنة (٣٨٧هـ/ ٩٩٨م) -وهو أقدم الذين كتبوا في تاريخ الفاطميين، وإن كانت مؤلفاته لم يصل إلينا منها شيء- ثم المسبحي المتوفى سنة (٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م)، وقد ذكر ابن خلكان أنه كتب تاريخًا لمصر في ثلاثة عشر ألف ورقة[٢]؛ ولكن لم يصل إلينا من مؤلفات المسبحي إلا الجزء الأربعون من تاريخه، وهو محفوظ الآن في مكتبة الاسكوريال بأسبانيا. ومهما يكن من شيء، فإن ابن ميسر اعتمد على مصادر طيبة، وقد شهد له بذلك ابن حجر فقال: إنه «عارف بالمصريين»[٣]. وليست هذه ميزته الوحيدة، فإننا لا نجد في كتابه سنب الفاطميين الذي نجده عند غيره من المؤرخين السنيين الذين لبوا رغبة الأيوبيين والمماليك في التشهير بالفواطم والقسوة في نقدهم.

والظاهر أن الذي حدا بابن ميسر -وبالمقريزي من بعده- إلى الاسترسال في بيان كنوز الفاطميين، إنما هو أنها نهبت في أيام الشدة العظمى بين سنتي (٤٥٩ و٤٦٤هـ/ ١٠٦٧ و١٠٧٢م). وذهبت بقيتها طعمة للنيران.

وقد ذكر ابن ميسر أنه في سنة (٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م) قويت شوكة الأتراك، وطمعوا في المستنصر، وزادت مرتباتهم من ٢٨ ألف إلى ٤٠٠ ألف دينار في الشهر،

---

(١) راجع المصدر السابق. وانظر أيضًا: ابن ميسر طبعة ماسيه ص٩٨.

(٢) راجع: وفيات الأعيان (١/ ٦٥٣، ٦٥٤).

(٣) راجع: ملحق كتاب الولاة والقضاة للكندي (طبعة جست) ص٥٦٥.

وطالبوه بالأموال، فاعتذر بأنه لم يبق شيء عنده، فألزموه ببيع ذخائره، فأخرجها إليهم وأخذوها بأبخس الأثمان[١]. كما ذكر أيضا في حوادث سنة (٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م) أن الجند امتدت أيديهم إلى نهب العامة، وأن عددًا من التجار قدم إلى بغداد ومعهم ثياب المستنصر وكنوزه وأشياء كثيرة مما نهب وقت القبض عليه[٢].

على أن أهم ما يذكره ابن ميسر، هو أنه رأى مجلدًا من نحو عشرين كراسًا، فيه بيان ما خرج من التحف والأثاث والثياب والذهب وغير ذلك[٣]. ولسنا ندري تمامًا هل كان المجلد سجلًا لتحف القصر، أو كان بيانًا بما نهب أو تفرق من التحف.

وفضلًا عن ذلك فإن ابن ميسر وصف الكنوز الفنية التي تركها الوزير الأفضل بن بدر الجمالي وصفًا شائقًا سنعود إلى بحثه في هذا الكتاب.

وقد كتب الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن في كتابه «الفاطميون في مصر»: «يقول ابن ميسر أيضًا: إن من هذه النفائس ما أرسله البساسيري إلى مصر سنة (٤٥٠هـ) حين أقام الخطبة باسم الخليفة الفاطمي المستنصر على منابر بغداد، وقد استولى عليها الأتراك أيضا سنة (٤٦٠هـ)، وكان مما بعث به البساسيري ثلاثون ألف قطعة كبيرة من البلور، وخمسة وسبعون ألف ثوب من الحرير الخسرواني وعشرون ألف سيف محلى بالذهب»[٤].

---

(١) ابن ميسر ص١٧.

(٢) المصدر السابق ص٢٠.

(٣) ابن ميسر ص٢٠.

(٤) الفاطميون في مصر ص٢٥٣.

ولو صح هذا لكان على جانب كبير من الخطورة؛ لأننا نعتقد أن قطع البلور المشار إليها كانت مما اختصت مصر بصناعته، ولم يكن هناك محل لإرسالها من العراق، ولكن الواقع أن النص الموجود في ابن ميسر بهذا الشأن[١]، وكذلك النص الذي يرادفه في المقريزي[٢]، لا يفهم منهما أن البلور والحرير الخسرواني والسيوف المكفتة[٣] بالذهب أرسلت من العراق على يد البساسيري، وإنما جاء ذكرها في معرض التحف التي نهبت من خزانات المستنصر. وأكبر الظن أن الدكتور حسن إبراهيم إن كان لم يعن بتحقيق هذه المسألة؛ فإنما ذلك لأنها تكاد تكون ثانوية بالنسبة إلى التاريخ الإسلامي على الرغم من خطر شأنها للمشتغلين بالفنون والآثار الإسلامية.

أما تقي الدين المقريزي فقد ولد بالقاهرة سنة (٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م) واشتغل بالقضاء فيها، وصار إمامًا لجامع الحاكم، وتنقل في وظائف كثيرة في القاهرة وفي دمشق، ثم انقطع للكتابة والتأليف حتى توفي سنة (٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م).

وأهم ما وصل إلينا من مؤلفاته كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، والغرض من تأليفه كما ذكر المؤلف في مقدمته، إنما هو «جمع ما تفرق من أخبار أرض

---

(١) ابن ميسر ص٢٠.

(٢) الخطط (١/ ٤٣٩).

(٣) التكفيت: ترجمة اصطلاحية لكلمة (Incrustation) بالفرنسية، وهو طريقة في الزخرفة قوامها حفر رسوم على سطح خشب أو معدن ثم ملأ الشقوق المؤلفة لهذه الرسوم بقطع أخرى من الخشب الملون أو العاج أو المعدن. والعادة أن تكون المادة المركبة أغلى قيمة من المادة الأصلية، فنرى مثلا الحجر مكفتًا بالرخام، والخشب مكفتًا بالعاج. والكلمة الإنجليزية للتكفيت (Inlaying) والألمانية (Eingelegte) أو (Einlage) والإيطالية (Intarsiatura).

مصر وأحوال سكانها». وقد جمع المقريزي تلك الحقائق التاريخية في فصول وأبواب عقدها للكلام عن خطط مصر وآثارها، فوصفها وأتى في هذه المناسبة على ذكر تاريخها، والذي أسسوها أو زادوا فيها، ناسجًا في ذلك على طريقة مؤرخي العرب في الخروج من موضوعاتهم الرئيسية، والاستطراد والتبسط فيما له بها علاقة، وفي الذي قد لا يرتبط بها إلا بأوهى الروابط[١].

ومهما يكن من شيء فقد جاء كتاب الخطط دائرة معارف عامة في تاريخ مصر وجغرافيتها وفي المدنيات التي قامت في وادي النيل، وفي بعض العلوم الدينية والاجتماعية والفلسفية التي ازدهرت في العالم الإسلامي.

وقد أتيح للأستاذ فييت في الأجزاء التي طبعها من المقريزي في منشورات المجمع العلمي الفرنسي بالقاهرة[٢] وفي المقالات المختلفة التي كتبها في شتى المجلات العلمية أن يدرس المصادر التي اعتمد عليها المقريزي في تأليفه وعلاقته بمن سبقه من المؤرخين كالكندي[٣] وابن ميسر[١].

---

(١) قارن (R.Nicholson: A Literry History of the Arabs) ص٣٥٣ وما بعدها. وراجع أيضًا: (Margoiouth: Arabic Historians) ص١ وما بعدها.

(٢) يعلم المشتغلون بالآثار العربية والتاريخ الإسلامي أن هذه الأجزاء التي طبعها الأستاذ فييت من المقريزي غنية جدًا بالحواشي التي كتبها فيها والفهارس التي ألحقها بها.

(٣) انظر: المقال الذي كتبه الأستاذ فييت سنة (١٩١٦) في الجزء الثاني عشر من نشرة المجمع الفرنسي للآثار الشرقية عن العلاقة بين المقريزي وبين الكندي. وقد لخص به في نحو عشر صفحات ما نقله الأول عن الثاني وأظهر أن المقريزي نقل أكثر من نصف كتاب الولاة دون أن يشير إلى الكندي، ولم يكن هذا نادر الوقوع بين مؤرخي العرب ويبرره بعض الشيء قلة انتشار الكتب القديمة، وصعوبة الحصول عليها والفائدة التي ترجى من النقل عنها. قارن أيضًا: ص٨٠ من البحث الذي كتبه الأستاذ فييت عن ابن ميسر في المجلة الأسيوية.

ولكن الذي يعنينا هنا بنوع خاص هو أن المقريزي نقل في كتاب الخطط مقتطفات كثيرة من كتاب اسمه «كتاب الذخائر والتحف» وأخطرها شأنًا للمشتغلين بدراسة الآثار والفنون الإسلامية، إنما هو التحف الفنية التي غصت بها قصور الخلفاء الفاطميين.

وقد ذكر المقريزي في الخطط مؤلف كتاب الذخائر والتحف نحو خمس عشر مرة؛ ولكن اسم هذا المؤلف غير معروف لنا حتى الآن، غير أننا نرجح أنه كان معاصرًا للشدة العظمى، وأنه لقي بعض من شاهد بعيني رأسه ما حل بجزء من تلك الكنوز النفيسة، ومما يؤيد ذلك العبارة الآتية وقد نقلها المقريزي عن الكتاب المذكور:

«قال في كتاب الذخائر والتحف: وحدَّثني من أثق به قال: كنت بالقاهرة يومًا من شهور سنة تسع وخمسين وأربعمائة، وقد استفحل أمر المارقين وقويت شوكتهم، وامتدت أيديهم إلى أخذ الذخائر المصونة في قصر السلطان بغير أمره، فرأيت وقد دخل من باب الديلم[٢] ابن سبكتكين، وأمير العرب ابن كيغلغ، والأعز بن سنان، وعدة من الأمراء أصحابهم البغداديين وغيرهم. وصاروا في الإيوان الصغير؛ فوقفوا عند ديوان الشام لكثرة عددهم وجماعتهم، وكان معهم أحد الفراشين والمستخدمين برسم القصور المعمورة، فدخلوا إلى حيث كان الديوان النظري في الإيوان المذكور، وصحبتهم فعلة، وانتهوا إلى حائط مجير؛ فأمروا الفعلة بكشف

---

(١) انظر: نفس المرجع.

(٢) أحد أبواب القصر الشرقي الكبير، وكانت له أبواب أخرى هي -كما جاء في الجزء الرابع من كتاب الانتصار لابن دقاق ص٥٦، ٥٧- باب الذهب، وباب البحر، وباب الريح، وباب الزمرد، وباب العيد، وباب قصر الشوك، وباب تربة الزعفران، وباب الزهومة.

الجير عنه، فظهرت حنية باب مسدود؛ فأمروا بهدمه، فتوصلوا به إلى خزانة ذكر أنها عزيزية من أيام العزيز بالله؛ فوجدوا فيها من السلاح ما يروق للناظر، ومن الرماح العزيزية المطلية أسنتها بالذهب ذات مهارك[١] فضة مجراة بسواد ممسوح وفضة بياض ثقيلة الوزن عدة رزم، أعوادها من الزان الجيد، ومن السيوف المجوهرة النصول، ومن النشاب الخلنجي[٢] وغيره، ومن الدرق اللمطي[٣]، والجحف[٤] التيني، وغير ذلك، ومن الدروع المكلل سلاح بعضها، والمحلى بعضها بالفضة المركبة عليه، ومن التجافيف[٥]

---

(١) أكبر الظن أن المراد بهذه الكلمة صفائح من المعدن كانت تغطي قناة الرمح ولكننا لم نعثر عليها في القواميس وكتب اللغة.

(٢) الخلنج كلمة فارسية معربة لشجر تصنع من خشبه القصاع والسفن. انظر: معجم أسماء النبات لأحمد عيسى بك ص٢٢.

(٣) الدرق بفتح الدال والراء: جمع درقة بفتح الدال والراء أيضًا وهي الترس يتقى بها المحارب عدوه. واللمط: بفتح اللام وسكون الميم: حيوان من فصيلة الغزال كانوا يتخذون من جلده تروسًا جيدة متينة.

(٤) الجحفة بفتح الجيم والحاء: الدرقة أيضًا.

(٥) تجافيف بالجيم: جمع تجفاف كما سيأتي عند الكلام على خزائن السلاح. جاءت في خطط المقريزي بالخاء؛ ولكن صحتها بالجيم. وعلى كل حال فإن التخفيفة عمامة صغيرة والتخفيفة للمرأة ملاءة صغيرة تغطي بها رأسها. والظاهر أن العمامة الكبيرة الضخمة كان يلبسها الفقهاء وأعيان الدولة كما يظهر مما رواه النويري في مناسبة وفاة قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن الخليل سنة (٦٣٧ هجرية)، وهذا نصه: «وأما سبب ولايته القضاء بدمشق فإنه كان قد بلغ الملك المعظم عن القاضي جمال الدين المصري قاضي قضاة دمشق أنه يتعاطى الشراب، فأراد تحقيق ذلك عيانًا فاستدعاه وهو في مجلس الشراب فحضر إليه، فلما رآه قام إليه وناوله هنابًا مملوءًا خمرًا، فولى القاضي جمال الدين المصري، ورجع فغاب هنيهة ثم عاد وقد خلع ثياب القضاء، ولبس قباء وتعمم بتخفيفة وحمل منديلًا ودخل على الملك المعظم في زي الندماء وقبل الأرض وتناول الهناب من يده وشرب ما فيه ونادم المعظم، فأحسن منادمته فأعجبه واعتذر من فراره أنه ما كان يمكنه تعاطي ذلك وهو في زي القضاة، فاغتبط الملك

والجواشن[١] والكزاغندات[٢] الملبسة ديباجًا، المكوكبة بكواكب فضة وغير ذلك، مما ذكر أن قيمته تزيد على عشرين ألف دينار، فحملوا جميع ذلك بعد صلاة المغرب، ولقد شاهدت بعض حواشيهم وركابياتهم[٣] يكسرون الرماح، ويتلفون بذلك أعوادها الزان ليأخذوا المهارك الفضة، ومنهم من يجعل ذلك في سراويله وعمامته وجيبه، ومنهم من يستوهب من صاحبه السيف الثمين.

وكان فيها من الرماح الطوال[٤] الخطية السمر الجياد عدّة؛ حملوا منها ما قدروا عليه، وبقي منها ما كسره الركابية ومن مجراهم، كانوا يبيعونه للمغازليين[٥] وصناع المرادن[٦]، حتى كثر هذا الصنف بالقاهرة، ولم تعترضهم الدولة ولا التفتت إلى قدر

المعظم به، ولما انقضى مجلس الشراب ورجع المعظم إلى حسه علم أنه لا يجوز له أن يقره على ولاية القضاء وقد شاهد من أمره ما شاهد، ففوض القضاء للقاضي شمس الدين وخلع عليه».

والظاهر أيضا أن التخفيفة كانت نوعًا من لباس الرأس يتخذه أمراء الألف بعد إذن من السلطان في عصر المماليك.

(١) الجوشن: الدرع. والجمع: جواشن. والجوشي: صانع الدروع.

(٢) جاءت في خطط المقريزي «الكراعيدات» ولكن الأستاذ فييت أرشدنا إلى أن صحتها: كزاغندات، وهي فارسية الأصل (كزاغند) بمعنى سلطة من القطن أو الحرير (جاكته) محشوة تلبس كالدرع.

(٣) الركابية أو صبيان الركاب: غلمان كانوا يسيرون في المواكب حول الخليفة أو الأمراء.

(٤) الرماح الخطية -بفتح الخاء-: نسبة إلى الخط وهي أرض في عمان كانت تجلب إليها الرماح القنا من الهند فتقوم فيها وتباع في بلاد العرب. راجع: (F.W.Schwarzlose Die Waffen der Alten Araber).

(٥) المغازليون أو المغزليون: صانعو المغازل.

(٦) المردن -بالكسر-: المغزل.

ذلك ولا احتفلت به؛ وجعلته هو وغيره فداء لأموال المسلمين وحفظًا لما في منازلهم»[١].

كما أن مؤلف كتاب الذخائر والتحف رأى بنفسه بعض حوادث الشدة العظمى وتشهد بذلك العبارة الآتية التي نقلها عنه المقريزي:

«قال: وكنت بمصر في العشر الأول من محرم سنة إحدى وستين وأربعمائة فرأيت فيها خمسة وعشرين جملًا موقرة كتبًا محمولة إلى دار الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي، فسألت عنها فعرفت أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطير ابن الموفق في الدين بإيجاب وجبت لها عما يستحقانه»[٢].

ومهما يكن من شيء فإن ما ورد في ابن ميسر والمقريزي عن كنوز المستنصر أشار إليه أكثر المشتغلين بالآثار الإسلامية في مؤلفاتهم المختلفة، ولا سيما في معرض الكلام عن ازدهار الفنون الإسلامية في عصر الفواطم[٣].

وقد نقل المستشرقون إلى اللغات الأوربية بعض ما جاء في المقريزي عن الكنوز المذكورة، فترجم كترمير (Quatremère) إلى الفرنسية جزءًا منه في الفصل الذي عقده للكلام عن المستنصر بالله في المذكرات الجغرافية والتاريخية التي نشرها عن

---

(١) خطط المقريزي (١/ ٣٩٧).

(٢) خطط المقريزي (١/ ٤٠٨، ٤٠٩) و(Quatremère: Mémoires sur l'Egypte) (٢/ ٣٨٥).

(٣) انظر مثلًا: (Gayet: L'Art Arabe) ص٩٨-١٠٦.

مصر سنة (١٨١١)[١]؛ كما نقل الدكتور لام (Dr.Lamm) إلى الألمانية بعض ما كتبه المقريزي في وصف الكنوز البلورية والزجاجية في خزائن المستنصر[٢].

وتنبه الأستاذ الروسي أنوسترانتزف (K.Inostranzew) إلى قيمة ما كتبه المقريزي فنقله إلى الروسية وكتب معه شروح وتعليقاتK وذلك في بحث له عن مواكب الفاطميين وخروجهم في المواسم والأعياد[٣]، وقد نشره سنة (١٩٠٦)، ولكنه لم يترجم إلى إحدى اللغات الأوربية التي نعرفها.

أما في اللغة العربية فإن بعض المؤرخين الذين خلفوا المقريزي نقلوا عنه كثيرًا مما ذكره عن كنوز الفاطميين[٤]، بينما أتى الدكتور حسن إبراهيم حسن في كتابه «الفاطميون في مصر» بجزء كبير مما كتبه ابن ميسر والمقريزي في وصف كنوز الفاطميين.

وأخيرًا نقل الأستاذ كاله (Dr.P.Kahle) إلى الألمانية ما كتبه المقريزي في وصف خزانة الجوهر والطيب والطرائف، ونشره في بعض شروح وتعليقات في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية[٥].

---

(١) انظر: (Mémoires géographiques et historiques sur l'Egypte et sur quelques contrées voisines, recueillis et extraits des manuscripts coptes, arabes, etc. de la Bibliothèque Impériale, par Et. Quatremère, Paris 1811, tome II pp.366 et suivs).

(٢) انظر: (C.J.Lamm: Mittelalterlice Gläser und Steinschnittarbeiten aus dem Nahen Osten) ص٥١١-٢١٣.

(٣) قارن (P.Kahle: Die Schätze der Fatimiden) ص٧٣٣.

(٤) ولا سيما أبو المحاسن والسيوطي وابن إياس.

(٥) انظر: (P.Kahle: Die Schätze der Fatimiden) في (Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft Band 14- Heft 3' 4) ص٣ وما بعدها.

خزائن القصر الفاطمي

يذكر المقريزي أن القصر الكبير الفاطمي كانت به عدَّة خزائن: منها خزانة الكتب، وخزانة البنود (الأعلام)، وخزائن السلاح، وخزائن الفرش، وخزائن الكسوات، وخزائن الخيم، وخزائن الجوهر والطيب والطرائف وغيرها، ومما لا علاقة لمحتوياته بالتحف الفنية التي ندرسها هنا؛ اللهم إلا إذا لاحظنا أنا ما كان فيها من طعام أو شراب أو توابل أو عطور يدل على بحبوبة العيش في تلك الأيام.

وكان لكل خزانة من خزائن القصر عامل يدير شئونها، وصناع يشتغلون فيها إن كانت محتوياتها مما يتطلب ذلك، وفراش يقوم هو ومساعدوه بتنظيفها والسهر على سلامة محتوياتها، ولكل هؤلاء مرتب يتقاضونه من بيت المال.

وكانت هذه الخزائن قسمًا من حواصل الخليفة التي كانت على خمسة أنواع؛ الأول: الخزائن، والثاني: حواصل المواشي، والثالث: حواصل الغلال وشون الأتبان، والرابع: حواصل البضاعة، والخامس: الطواحين ودار الفطرة[1].

(١) انظر: صبح الأعشى للقلقشندي (٣/ ٤٧٥-٤٨٠).

خزانة الكتب[١]

أما خزانة الكتب فكانت مفخرة العصر الفاطمي، وأكبر دليل على تقدم الآداب والعلوم فيه. كان فيها أندر المؤلفات وأشهرها، وكان فيها من بعض المؤلفات نسخ كثيرة، كان الخلفاء والوزراء يحرصون على جمعها، حتى ينفردوا بالفخر ويحرموا منه المكاتب الأخرى في العالم الإسلامي، وكان بعض الكتب بخطوط المؤلفين أنفسهم؛ كالخليل بن أحمد والطبري.

وكان تجار الكتب يعرضون على موظفي مكتبة القصر أندر الكتب التي يعثرون عليها، وكانت معروضاتهم تفحص بعناية كبيرة. ويذكر المقريزي أن رجلًا حمل إلى العزيز بالله نسخة من كتاب الطبري اشتراها بمائة دينار، فأمر العزيز أمناء المكتبة، فأخرجوا من الخزائن ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبري، منها نسخة بخطه، ولعله فعل ذلك لكي لا يركب الرجل متن الشطط في تقدير ثمن الكتاب. وحدث أن ذكر كتاب الجمهرة لابن دريد[٢] فوجد العزيز أن في المكتبة مائة نسخة منه[٣].

وكثيرًا ما كان الخليفة يزور خزانة الكتب، فيجيء راكبًا، ثم يترجل ويتخذ مجلسه فوق دكة منصوبة، ويمثل بين يديه أمين الخزانة، ويأتيه بمصاحف مكتوبة

---

(١) خطط المقريزي (١/ ٤٠٧-٤٠٩).

(٢) أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد البصري، كان إمام عصره في اللغة والأدب والشعر، تواصل بابني ميكال اللذين كانا عاملين على فارس وصنف لهما كتاب الجمهرة وهو من أقدم معاجم اللغة وأصحها، وتوفي ابن دريد في بغداد سنة (٣٢١هـ/ ٩٣٣م).

(٣) قارن (Mez: Die Renaissance des Islams) ص١٦٤، ١٦٥.

بأقلام مشاهير الخطاطين، ويعرض عليهم ما يقترح شراءه من الكتب، أو ما يريد الخليفة حمله لقراءته في مجلسه الخاص[١].

وكان في خزانة الكتب مخطوطات محلاة بالذهب والفضة، وربما كان بعضها مزينًا بالصور والرسومات الدقيقة، متأثرًا بالصناعة الفارسية في هذا الميدان. وجمع الفاطميون في خزانتهم نماذج عديدة من كتابة مشاهير الخطاطين؛ كابن مقلة[٢]، وابن البواب[٣]، وغيرهما[٤].

ويقال: إن خزانة الكتب الفاطمية كان فيها أربعون قسمًا: منها قسم فيه ثمانية عشر ألف كتاب في العلوم القديمة، وكان كل قسم يحتوي على رفوف عديدة مقطعة بحواجز، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل، وبلغت جملة ما في الخزانة

(١) خطط المقريزي (١/ ٤٠٩).

(٢) أبو علي محمد بن الحسين ولد ببغداد سنة (٢٧٢هـ/ ٨٨٦م)، وكان في أول أمره عاملًا على الخراج في أرض بإقليم فارس، ثم تولى الوزارة للخليفين العباسيين المقتدر والقاهر، وتوفي سنة (٣٢٨هـ/ ٩٤٠م). وقيل: إنه كان له أو لأخيه أبي عبد الله الحسن خط جميل وطريقة حسنة في الكتاب.

(٣) أبو الحسن علي بن هلال، مات في بغداد نحو سنة (٤١٦هـ/ ١٠٢٥م)، واشتهر في حياته بجودة الخط. هذب طريقة ابن مقلة وسار عليها وابتدع الخط الريحاني، وكان له تلاميذ وظلت مدرسته في الخط حتى عصر ياقوت المستعصمي الذي توفي في بغداد سنة (٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م).

(٤) خطط المقريزي (١/ ٤٠٨، ٤٠٩).

من الكتب نحو مليون وستمائة ألف -وقيل: مليونين- في الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ وسير الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء[١].

وكان أكثر المخطوطات المذكورة في جلود جميلة النقوش بديعة الصناعة، نسج المماليك على منوالها في صناعة التجليد في عصرهم، واخذ الغربيون عنهم في العصور الوسطى كثيرًا من أساليبهم في هذا الميدان[٢].

وقد استولى الجند والأمراء على نفائس ما في خزانة الكتب، فتفرقت أكثر محتوياتها، وكان بعض العبيد والإماء يتخذرن من جلودها أمدسة يلبسونها في أرجلهم، كما كانوا يحرقون ورقها قائلين إن فيها كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم. وأهمل من الكتب عدد كبير سفت عليه الرياح التراب، فصار تلالًا كانت باقية في زمن المقريزي وكانت تسمى تلال الكتب[٣].

وبالرغم من ذلك كله فقد بقي في خزائن القصر الداخلية كتب لم تصل إليها يد العبث في أيام الشدة العظمى، واستطاع الفاطميون بعد تلك الأيام العجاف أن يعوضوا بعض ما فقدوه فيها، وأن يكون له خزانة كتب عظيمة بيعت عندما استولى صلاح الدين الأيوبي على قصر العاضد آخر الخلفاء الفاطميين[٤]. ونقل المقريزي

---

(١) قارن ما كتب عن المكتبات في (T.Arnold: Painting in Islam) ص٧٤-٧٦ و(Nicholson: A Literary History of the Arabs) ص٣٥٩ و(Khalil Totah: the Contribution of the Arabs to Education) ص٢٩.

(٢) راجع: الجزء الثاني من تراث الإسلام ص٨٨ وما بعدها.

(٣) انظر: (O.Pinto: Le Biblioteche degli Arabi) روما سنة (١٩٢٨) ص٢٥، ٢٦.

(٤) قارن ما جاء في كتاب السلوك للمقريزي (طبعة الدكتور زيادة) (١/ ٢٣٢، ٢٣٣) عن نقل خزائن الكتب من دار القاضي الأشرف أحمد بن القاضي الفاضل.

عن ابن أبي طي في هذه المناسبة أنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقصر في القاهرة، ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتان نسخة من تاريخ الطبري[١].

ومهما يكن من شيء؛ فإن خزانة الكتب الفاطمية ذاع صيتها في العالم الإسلامي، وتشهد بذلك حكاية رواها أسامة بن منقذ عن أبيه، وفيها: أن قاضيًا سافر إلى مصر في أيام الحاكم بأمر الله، فأحسن إليه وأكرمه ووصله بصلات سنية، فطلب القاضي إلى الخليفة الفاطمي أن يعفيه منها، وسأله أن يجعل صلته كتبًا يختارها من خزانة الكتب الفاطمية، فأجابه الخليفة إلى ما أراد، وحمل القاضي الكتب معه في مركب إلى ساحل الشام، فتغير عليه الهواء فرمى بالمركب إلى مدينة اللاذقية وفيها الروم، فخاف على نفسه وعلى ما معه من الكتب، فكتب إلى جد أسامة بن منقذ كتابًا يقول فيه: قد حصلت بمدينة اللاذقية بين الروم ومعي كتب الإسلام، وقد وقعت لك رخيصًا فهل أجدك حريصًا؟ فبعث إليه بمن قام بحراسته وحمل ما معه[٢].

---

(١) قارن ما كتبه المقدسي في وصفه مكتبة عضد الدولة فقد قال (ص٤٤٩): «وخزانة الكتب على حجرة على حدة عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد، ولم يبق كتاب صنف إلى وقته من أنواع العلوم كلها إلا وحصله فيها، وهي أزج طويل في صفة كبيرة فيه خزائن من كل وجه وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتًا طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوَّق، عليها أبواب تنحدر من فوق والدفاتر منضدة على الرفوف لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامي الكتب لا يدخلها إلا وجيه».

(٢) راجع: كتاب «الفاطميون في مصر» للدكتور حسن إبراهيم ص١٣٦، ١٣٧، وراجع أيضًا: (Derenbourg: Vie d'Ousama) ص٥٠٣، ٥٠٤.

وأسامة بن منقذ من بني منقذ أصحاب قلعة شيزر بالقرب من حماة، تنقل بين مصر والشام وتوفي نحو سنة (١١٨٨ م)، ومن مؤلفاته كتاب الاعتبار أو «أسامة بن منقذ» أتى فيه على

وليس غريبًا أن يجتمع للفاطميين مثل هذه المكتبة العظيمة، فقد كانوا يعتمدون على الدعاوة والمخطوطات في نشر مذهبهم، وإذا صح ما ذكره ابن الأثير فإن عميدهم عبيد الله المهدي كانت عنده كتب ملاحم لآبائه، وكان يحملها في متاعه عند مسيره إلى سجلماسه، وحدث أن لحق به لصوص عند موضع يقال له: الطاحونة وسرقوا منه الكتب المذكورة، فحزن لضياعها أكثر من حزنه لفقد سائر ما أخذوه من حاجياته؛ ولكن الظاهر أن أبا القاسم بن المهدي استطاع أن يستعيد هذه الكتب وهو في طريقه لغزو الديار المصرية سنة (٣٠٠هـ/ ٩١٢م)[١].

ولسنا نظن أن الفاطميين وجدوا في مصر عند قدومهم من شمالي أفريقية كتبًا كثيرة كانت نواه لمكتبتهم العظيمة؛ ولكنا نرجح أن رغبتهم الأكيدة في منافسة الدولة العباسية، وعملهم على تشجيع العلم والعلماء، وسياستهم في تقريب الأدباء والشعراء، واتخاذهم إياهم صحفًا حية تلهج بذكرهم[٢]، ثم روح التسامح التي كانت تسود البلاد في أكثر أيام حكمهم، كان كل ذلك من شأنه أن يشجع الدرس والتحصيل والبحث والتأليف، ونسخ الكتب ومعارضتها، ونقدها، والتعليق عليها، وكتابة الذيول لها، كما كان من شأنه أيضًا أن يسوقهم إلى اقتناء المخطوطات، إن لم يكن لولع خاص فلأنه كان من واجبات الخلفاء وشارات الفضل والعلم[٣]،

وصف حياته ورحلاته وكثير من أحوال مصر والشام في عهده، وقد نشره ديرينبورج في باريس سنة (١٨٨٩).

(١) راجع: تاريخ الكامل لابن الأثير (٨/ ١٤).

(٢) انظر: (Wiet: Corpus, Egypte) (٢/ ٨١).

(٣) كتب ياقوت في ترجمة الوزير ابن عباد: أن نوح بن منصور السامانى أرسل إلى ابن عباد في السر يستدعيه إلى حضرته ويرغبه في خدمته، ويذل البذل السنية، فكان من جملة اعتذاره أن قال: «كيف يحسن لي مفارقة قوم بهم ارتفع قدري وشاع بين الأنام ذكري، ثم كيف لي بحمل

فضلًا عن أن المكتبات كانت قد انتشرت في العالم الإسلامي وأدرك المسلمون فائدتها[١].

ولم يكن وزراء الفاطميين أقل حماسًا في هذا الميدان من أولياء الأمر في البلاد؛ ولا سيما أن المتأمل في تاريخ الدولة الفاطمية يرى أن خلفاءها كانوا يتقربون إلى الشعب بتكريم فقهائه وعلمائه، فهذا يعقوب بن كلس اليهودي الذي أسلم في خدمة كافور، واتصل بالمعز، ووزر للعزيز كان -كما كتب ابن خلكان- «يحب أهل العلم ويجمع عنده العلماء، ورتب لنفسه مجلسًا في كل ليلة جمعة يقرأ فيه مصنفاته على الناس، وتحضره القضاة والفقهاء والقراء والنحاة، وجميع أرباب الفضائل وأعيان العدول وغيرهم من وجوه الدولة وأصحاب الحديث، فإذا فرغ من مجلسه قام الشعراء ينشدونه المدائح، وكان في بيته قوم يكتبون القرآن الكريم، وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب حتى الطب ويعارضون ويشكلون المصاحف وينقطونها»[٢]. وفضلًا عن ذلك فالمعروف أن الفضل في وقف الجامع الأزهر على العلم وخلق نواة الجامعة الأزهرية العظيمة إنما يرجع إلى ابن كلس.

أموالي مع كثرة أثقالي وعندي من كتب العلم خاصة ما يحمل على أربعمائة جمل أو أكثر». ومهما يكن من شيء فقد روي أن فهرست كتب ابن عباد كانت في عشر مجلدات. راجع: معجم الأدباء لياقوت (٢/ ٣١٥).

(١) راجع: ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين (٢/ ٥٩ وما بعدها).

(٢) راجع: وفيات الأعيان (٢/ ٤٤٠) وكتاب الإشارة إلى من نال الوزارة لابن منجب (ص١٩-٢٢). وانظر: (Margoliouth: Cairo, Jerusalem and Damascus) ص٤٠، ٤١.

ومهما يكن من شيء فإن حكام القيصريات الإسلامية الثلاث[١] في أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كانوا مغرمين بجمع الكتب غرامًا كبيرًا، وكانوا يتسابقون في ذلك ويتنافسون حتى أن الخليفة الحكم الثاني -من خلفاء الدولة الأموية في الأندلس- كان له رسل في أنحاء العالم الإسلامي يجمعون له الكتب الثمينة ولا سيما ما كان منها بخطوط المؤلفين[٢].

وقد أشار المستشرق متز (Mez) إلى فقر المكاتب الغربية في ذلك الحين؛ فذكر عدد المجلدات التي كانت تشتمل عليها المكاتب في بعض البلدان الأوربية الشهيرة مثل: كونستانس التي كان بها في القرن التاسع ٣٥٦ مجلدًا، وبامبرج (من أعمال بافاريا) التي لم تكن تشمل إلا على ٩٦ مجلدًا[٣]، بينما كان لبعض الأفراد في الشرق الإسلامي -كالجاحظ والفتح بن خاقان والقاضي إسماعيل بن إسحاق- مكاتب كبيرة[٤].

---

(١) الدولة العباسية في الشرق والدولة الفاطمية في مصر وممتلكاتها والدولة الأموية في الأندلس.

(٢) انظر: (Mez: Die Renaissance des Islams) ص١٦٤، و(Nicholson: Literary History of the Arabs) ص٤١٩.

(٣) راجع: المصدر السابق لمتز (Mez). وانظر أيضًا: (Th. Gottlieb: Über mittelalterliche Bibliotheken) ص٢٢، ٢٣، ٣٧.

(٤) انظر: المصدر السابق لمتز ص١٦٥، وراجع أيضًا: ما جاء عن المكتبات في مادة «مسجد» بدائرة المعارف الإسلامية (٣/ ٤١٢) من الطبعة الفرنسية.

وقد كتب أبو شامة[١] في مؤلفه «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين» نبذة عن بيع الكتب من الخزانة الفاطمية في بداية عصر صلاح الدين، فنقل عن عماد الدين الأصفهاني أن بيع الكتب في القصر كان له يومان في كل أسبوع، وكانت الكتب تباع برخص الأثمان، وبعد أن كانت خزائنها في القصر مرتبة مفهرسة قيل للأمير بهاء الدين قراقوش متولي القصر وصاحب الأمر والنهي فيه: إن هذه الكتب قد عاث فيها العث ولا بد من تهويتها، وإخراجها من الرفوف إلى أرض الخزانة، وكان هذا الوزير «تركيا لا خبرة له بالكتب ولا دربة له بأسفار الأدب» بينما كان هذا الطلب حلية مدبرة من تجار الكتب، يريدون بها تفريق المؤلفات وتوزيع أجزائها وخلط أنواعها ومزج بعضها ببعض، فتم ذلك واختلطت كتب الأدب بكتب النجوم، وكتب الشرع بكتب المنطق، وكتب الطب بكتب الهندسة، والتاريخ بالتفسير، والكتب المجهولة بالكتب المشهورة. وكان في خزانة الكتب مؤلفات يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزءًا مجلدًا، إذا فقد منها جزء لا يخلف أبدًا؛ ففرق الدلالون هذه الأجزاء لتقل قيمة الكتب وتباع بأبخس الأثمان؛ بينما كانوا يعرفون مواضع أجزائها ويستطيعون جمع شملها بعد شرائها، وكان بعضهم يتشاركون في إتمام ذلك ثم يبيعون الكتب بعد ذلك بأضعاف الثمن الذي دفعوه فيها[٢].

---

(١) أبو شامة: هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي المتوفى سنة (٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) وكتابه هذا هو تاريخ عهد نور الدين وصلاح الدين وقد طبع بمطبعة وادي النيل بالقاهرة سنة (١٢٨٧ هـ) كما طبع في أوربا.

(٢) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (طبعة مصر سنة ١٢٨٧ هـ) (١/ ٢٦٧). وقد نبهنا إلى هذا النص حضرة الزميل حسن عبد الوهاب أفندي المفتش بإدارة حفظ الآثار العربية، كما ذكرنا بأن في دار الكتب المصرية كتابًا اسمه التعليقات والنوادر، كتب للأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي، وقد سجل في الدار برقم ٢٤٢ لغه. وجاء في وصفه بالجزء الثاني من

ومهما يكن من شيء فإن المعروف أن القاضي الفاضل أسس المدرسة الفاضلية سنة (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) ووقفها على طائفتي الفقهاء الشافعية والمالكية، واشترى لها ألوفًا من الكتب التي كانت تباع من خزائن الفاطميين، حتى بلغ ما في هذه المدرسة من الكتب نحو مائة ألف مجلد، كان مصيرها إلى الضياع، وسبب ذلك كما يقول المقريزي: «أن الطلبة التي كانت بها لما وقع الغلاء بمصر في سنة أربع وتسعين وستمائة والسلطان يومئذ الملك العادل كتبغا المنصوري مسهم الضر فصاروا يبيعون كل مجلد برغيف خبز حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب»[1].

ولسنا نظن أننا في حاجة إلى أن نكرر أن ما وقع في عصر صلاح الدين لما بقي في خزانة الكتب الفاطمية كان مقصودًا به محاربة المذهب الشيعي قبل كل شيء[2]،

فهرس دار الكتب ص٨ ما يأتي: «تأليف الإمام اللغوي أبي علي هارون بن زكريا الهجري. وسماها صاحب كشف الظنون: (النوادر المفيدة) وهو كتاب في النوادر اللغوية. وطريقته أن يذكر القصيدة أو البيت من الشعر ويشرح ما فيه من الغريب على طريقة المتقدمين من أئمة اللغة مخطوطة ومضبوطة بالحركات، بأثنائها خروم، كتبت برسم الخزانة السيدية الأجلية الأفضلية الجيوشية السيفية الناصرية الكافلية الهادية» فللزميل حسن عبد الوهاب أفندي ولفضيلة الشيخ محمد عبد الرسول خالص الشكر على تنبيهنا إلى هذه البيانات.

(١) خطط المقريزي (٢/ ٣٦٦).

(٢) نشير في هذه المناسبة إلى أن أبا حيان التوحيدي أحرق كتبه في آخر عمره «لقلة جدواها وضنا بها على من لا يعرف قدرها بعد موته»، فكتب إليه القاضي أبو سهل علي بن محمد يعذله على صنيعه، وأجاب أبو حيان بكتاب طويل يتبين فيه يأس العلماء لعدم تقدير الناس وإقبالهم على علمهم. ومن عباراته: «ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق...» والكتاب كله قطعة أدبية طريفة فضلًا عن أنه وثيقة تكشف عن بؤس العلماء والأدباء من قديم الزمان. انظر: معجم الأدباء لياقوت (طبعة مرجوليوث) (٧/ ٣٨٦ وما بعدها).

ولعل أكثر الكتب التي بيعت أو استولى عليها المقربون إلى صلاح الدين وأمكن إنقاذها كانت من المؤلفات العلمية أو الأدبية التي لا تمت إلى مذهب الشيعة بأدنى صلة.

خزانة الكسوات

أنشأ المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين في مصر دارًا سماها دار الكسوات، كانت ترد إليها المقادير الوافرة من المنسوجات المختلفة المصنوعة في دار الطراز، أو الواردة من أنحاء العالم الإسلامي أو غيره من البلاد، فتفصل منها كسوات صيفية وكسوات شتوية لرجال القصر وأولادهم ونسائهم وأفراد أسراتهم، فضلًا عن الذي كان يخلع على الأمراء والوزراء وكبار الموظفين من الثياب الحريرية المطرزة بالذهب كل بالدرجة التي تناسبه، ووضعت لذلك رسوم سجلت وتقاليد اتبعت، فكانوا يخلعون على الأمراء ثياب دبيقية[1] وعمائم مطرزة بالذهب، وعلى الوزراء وكبار الموظفين غير ذلك.

وقد أتى المقريزي ببيانات طويلة عن ثياب الواسم والأعياد (التشريفية)، التي كان الخليفة يمنحها الأمراء والأميرات والأتباع وموظفي القصر بخزاناته المختلفة

(١) نسبة إلى دبيق وقد كانت في العصور الوسطى بلدة من أعمال دمياط، وربما كان موقعها الآن على مقربة من قرية دبيج الواقعة جنوبي السنبلاوين، واشتهرت دبيق بصناعة المنسوجات الموشاة بخيوط الحرير والذهب، ولم يلبث اسم الأقمشة الكتانية المنسوجة فيها (الدبيقي) أن أصبح علمًا على نوع من النسيج، كان يصنع فيها وفي غيرها من البلاد كأسيوط. وذكر المقريزي (الخطط جزء١ ص٢٢٦ وج٤ ص٨٢ من طبعة فيت) أن العمائم الشرب المذهبة كانت تعمل بها، ويكون طول كل عمامة منها مائة ذراع، وفيها أوقات منسوجة بالذهب فتبلغ العمامة من الذهب خمسمائة دينار سوى الحرير والغزل، وحدثت هذه العمائم في أيام العزيز بالله.

ودواوينه المتعددة، وكذلك نساء الكثيرين منهم وأطباء البلاط ووالي القاهرة ووالي مصر الفسطاط[١].

وكانوا يسمون العيد أحيانًا عيد الحلل[٢]؛ لأن الحلل أو الثياب توزع فيه على عدد أكثر عددًا من الذين توزع عليهم في سائر المناسبات، كرضاء الخليفة عن عمل من الأعمال، أو تولي إمارة الحج[٣] أو غير ذلك.

وقد كان للقواد نصيب وافر من الخلع، فالمعروف مثلًا أن العزيز بالله ركب لرؤية الجند الذين أعدهم بقيادة منجوتكين التركي للسير سنة (٣٨١هـ/ ١٩٩١م) إلى حلب لإخضاع ابن سعد الدولة، ثم عاد فخلع على منجوتكين، وحمل إليه عشرة أحمال مال، فيها مائة ألف دينار، ومائة قطعة من الثياب الملونة على أيدي خمسة وعشرين غلامًا، وعشر قباب بأغشية ومناطق مثقلة وأهلة وفروش وخمسين بندًا[٤].

وكانت الكسوات التي تخلع على وجوه الدولة ترفق ببراءات أو رقعات من ديوان الإنشاء، وقد حفظ لنا المقريزي صورة رقعة من هذه الرقعات كتبها ابن الصيرفي[٥]، مقترنة بكسوة عيد الفطر من سنة (٥٣٥) هجرية، وهذا نصها:

---

(١) راجع: خطط المقريزي (١/ ٤١٠ وما بعدها).

(٢) حلة وحلل مثل غرفة وغرف.

(٣) انظر: ابن ميسر ص٥٤.

(٤) انظر: ابن ميسر ص٤٨.

(٥) هو تاج الرئاسة أمين الدين أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان الشهير بابن الصيرفي، وقد ذاع صيته في البلاغة والشعر وحسن الخط واستخدمه الأفضل بن بدر الجمالي في ديوان المكاتبات. ومن تآليفه كتاب «الإشارة إلى من نال الوزارة» وقد طبع بمصر وفيه ذكر الوزراء

«ولم يزل أمير المؤمنين منعمًا بالرغائب، موليًا إحسانه كل حاضر من أوليائه وغائب، مجزلًا حظه من منائحه ومواهبه، موصلًا إليهم من الحياء ما يقصر شكرهم عن حقه وواجبه. وإنك أيها الأمير لأولاهم من ذلك بجسيمه، وأحراهم باستنشاق نسيمه، وأخلقهم بالجزء الأوفى منه عند فضه وتقسيمه؛ إذ كنت في سماء المسابقة بدرًا، وفي موائد المناصحة صدرًا، وممن أخلص في الطاعة سرًّا وجهرًا، وحظي في خدمة أمير المؤمنين بما عطر له وصفًا، وسير له ذكرًا، ولما أقبل هذا العيد السعيد، والعادة فيه أن يحسن الناس هيئتهم، ويأخذوا عند كل مسجد زينتهم، ومن وظائف كرم أمير المؤمنين تشريف أوليائه وخدمه فيه، وفي المواسم التي تجاريه، بكسوات على حسب منازلهم، تجمع بين الشرف والجمال، ولا يبقى بعدها مطمح للآمال، وكنت من أخص الأمراء المقدمين...»[1].

وقد نقل المقريزي عن كتاب الذخائر أن بعضهم قدر المنسوجات النفيسة التي أخرجت من خزائن القصر في سني الشدة أيام المستنصر بما يزيد على خمسين ألف قطعة من الديباج الخسرواني[2] الفاخر، وكان أكثرها مذهَّبًا. وقيل: إن أبا سعيد النهاوندي دون غيره من الدلالين الذين وكِّل إليهم بيع التحف أمام أبواب القصر، باع في مدة قصيرة أكثر من عشرين ألف قطعة من الخسرواني. كما نقل المقريزي أيضًا أن ناصر الدولة زعيم الجند التركية أرسل يطالب المستنصر بما بقي لغلمانه، فذكر

الفاطميين إلى عصره، ومن تآليفه أيضًا: «قانون ديوان الرسائل» الذي نشره وعلق عليه المرحوم علي بك بهجت مدير دار الآثار العربية الأسبق.

(١) خطط المقريزي (١/ ٤١٢).

(٢) نوع من النسيج الفاخر ينسب إلى خسرو شاه الفرس

الخليفة أنه لم يبق عنده شيء إلا ملابسه، فأخرج ثمانمائة بدلة من ثيابه بجميع آلاتها كاملة، فقدرت قيمتها وحملت إلى الأمير المذكور.

وكان المشرف على خزائن الكسوات ذا رتبة عظيمة، وكانت الخزائن المذكورة ثلاثة: الخزانة الباطنة، لما هو خاص بلباس الخليفة، وتتولاها سيدة تنعت بزين الخزان، وتحت إمرتها ثلاثون جارية، ولا يُغيِّر الخليفة ثيابه إلا عندها. وكان من ملحقات هذه الخزانة بستان من أملاك الخليفة على شاطئ الخليج، تزرع فيه الزهور، وتحمل يوميًّا إلى الخزانة لتعطير الثياب[1].

أما الخزانة الظاهرة فكان يتلاوها أكبر حاشية الخليفة، وكانت فيها كميات كبيرة من شتى أنواع النسيج الفاخر، وكان يحمل إليها ما يصنع في دار الطراز بتنيس ودمياط والإسكندرية، وبها صاحب المقص، وهو رئيس الخياطين، وتحت إمرته عدد منهم، لهم أماكن يفصلون ويخيطون فيها ما يؤمرون بخياطته من الثياب والكسوات، ثم ينقل منها إلى خزانة الكسوات الباطنة ما يخص الخليفة[2].

ولا يسعنا أن نختم الكلام عن خزانة الكسوات دون أن نشير إلى الكسوة التي أمر المعز لدين الله بنسجها للكعبة، وكانت مربعة الشكل من ديباج أحمر، وطرزت على حافتها الآيات التي وردت في الحج بحروف الزمرد الأخضر[3]، وقد كتب ابن ميسر في وصفها:

---

(١) خطط المقريزي (١/ ٤١٣).

(٢) خطط المقريزي (١/ ٤١٣).

(٣) راجع: كتاب «الفاطميون في مصر» للدكتور حسن إبراهيم، وكذلك ترجمة كترمير لكتاب المقريزي «السلوك في معرفة دول الملوك» (٢/ ٢٨٠، ٢٨١).

«وفي يوم عرفة نصب المعز الشمسية التي عملها للكعبة على إيوان قصره، وسعتها اثنا عشر شبرًا في اثني عشر شبرًا، وأرضها ديباج أحمر، ودورها عشر هلالًا ذهبا، في كل هلال أترجة ذهب مشبك، وجوف كل أترجة خمسون درة كبارًا كبيض الحمام، وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق، وفيها كتابة دورها آيات الحج زمرد أخضر، وحشو الكتابة در كبار لم ير مثله، وحشو الشمسية المسك المسحوق فرآها الناس في القصر ومن خارج القصر لعلو موضعها، وإنما نصبها عدة فراشين لثقل وزنها»[1].

ويظهر أيضًا أن الخلفاء الفاطميين كانوا يحتفظون في خزائنهم بثياب بعض الخلفاء العباسيين. ويقول أبو المحاسن في هذا الصدد: «وكانت هذه الثياب التي لخلفاء بني العباس عند خلفاء مصر يحتفظون بها لبغضهم لبني العباس، فكنت هذه الثياب عندهم بمصر بسبب المعيرة لبني العباس»[2].

ولا حاجة بنا لأن نذكر أن أسواق القاهرة كانت عامرة بالمنسوجات النفيسة التي كانت تشرف الحكومة على إنتاجها وتفرض عليها الضرائب الكبيرة، وقد وصف الكاتب الصيني (Chau Ju-Kua) أسواق القاهرة فقال: إنها «ملأى باللغط والضجيج والحركة وغاصة بالديباج والدمقس[3] المنسوج بخيوط الذهب والفضة، وأما الصناع ففيهم الروح الفنية الخلقة»[1].

---

(١) انظر: أخبار مصر (طبعة ماسيه) ص٤٤.

(٢) انظر: الجزء الخامس من النجوم الزاهرة ص١٦.

(٣) الدمقس هو: الحرير الأبيض؛ على أن الواقع أن كتب اللغة لا تحدد لنا تمامًا نوع المادة التي كان ينسج منها، فقد جاء في القاموس المحيط: الدمقس كهزبر الإبريسم أو القز أو الديباج أو الكتان كالدمقاس وثوب مدمقس منسوج به.

وقد جاء البيت الآتي في قصيدة البحتري التي قالها يصف إيوان كسرى بالمدائن ويرثي دولة الفرس:

لم يعبه أن بز من بسط الديـ ـباج واستل من ستور الدمقس

(١) انظر: (Chau Ju-Kua: Chu-fan-chi) ص١١٦.

خزانة الجوهر والطيب والطرائف

أما خزانة الجوهر والطيب والطرائف، فإن ابن المأمون البطائحي[١] يذكر أنها كانت تحتوي على الأعلام والجوهر التي يركب بها الخليفة في الأعياد، وكان يؤخذ من الخزائن ما يحتاج إليه، ثم يعاد إليها بعد الغنى عنه، ومعه سيف الخليفة الخاص، والرماح الثلاثة التي تنسب إلى المعز.

وقد ذكر القلقشندي[٢] في الكلام عن الآلات الملوكية المختصة بالمواكب العظام أن الأعلام أعلاها في المرتبة اللواءان المعروفان بلواءي الحمد، وهما رمحان برءوسهما أهلة من ذهب، وفي كل منهما سبع من الديباج أحمر وأصفر، وفي فمه طارة مستديرة يدخل فيها الرمح فيفتحان فيظهر شكلهما، وكان يحمل هذين الرمحين فارسان من صبيان الحرس الخاص؛ أي فتيان حرس الخليفة، وكانت تجيء وراء الرمحين المذكورين إحدى وعشرون راية ملونة من الحرير ذي الزخارف والرسوم، ومكتوب

---

(١) كان أبوه أبو عبد الله محمد بن الفاتك البطائحي المأمون وزيرًا للخليفة الآمر، اعتلى منصب الوزارة سنة (٥١٥هـ/ ١١٢١م) بعد أن دبر بإيعاز من الخليفة اغتيال الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي؛ لأن الخليفة الآمر أراد التخلص من وزيره الأفضل الذي كان قد حجر عليه وانتزع السلطان منه. وقد ألف ابن المأمون البطائحي كتابًا في التاريخ يظهر أنه كان أربعة أجزاء، وقد أشار إليه المقريزي كثيرًا ونقل عنه حوادث مصر من سنة ٥٠١ إلى سنة ٥١٩؛ على أن ابن المأمون البطائحي عني على وجه خاص بتاريخ المدة المحصورة بين سنتي ٥١٤ و٥١٩، وهي التي كان أبوه فيها وزيرًا، فكان سهلا عليه الوصول إلى بلاط الفاطميين وإلى المستندات الحكومية التي ينبئنا عن وجودها قول ابن ميسر (أخبار مصر ص٩ وص٦٦): «وأمر المستنصر ألا تسطر في السير». قارن أيضًا: حاشية الدكتور زيادة في السلوك للمقريزي (١/ ١١١).

(٢) صبح الأعشى (٣/ ٤٧٣).

عليها «{نصر من الله وفتح قريب}»، وطول كل راية منها ذراعان في ذراع ونصف، ويحملها فتى من صبيان الخليفة يركب بغلة[١].

وقد كتب القلقشندي أيضًا في الآلات الملوكية المختصة بالمواكب العظام عن الجوهر وأسماء الحافر، وذكر أنه قطعة ياقوت أحمر في شكل هلال زينتها أحد عشر مثقالًا، ليس لها نظير في الدنيا، تخاط خياطة حسنة على خرقة من حرير، وبدائرها قضيب زمرد ذبابي عظيم الشأن، يجعل في وجه فرس الخليفة عند ركوبه في المواكب، والزمرد الذبابي، كما قال القلقشندي في مكان آخر[٢]: هو أفضل أنواع الزمرد ولا يكاد يوجد.

وقد روى القلقشندي[٣] أن صلاح الدين عندما استولى على القصر بعد وفاة العاضد آخر خلفاء الفاطميين، وجد فيه من التحف الثمينة ما يخرج عن حد الإحصاء، ومن جملته الحافر الذي تقدم ذكره[٤]. وإذا صح ما كتبه الدكتور كاله (Paul Kahle) في ترجمته الألمانية لما جاء في المقريزي عن خزانة الجوهر والطيب والطرائف[٥]، فإن الحافر المذكور وصل إلى يد وليم الثاني ملك صقلية سنة (١١٧٩م)، وأهداه وليم هذا إلى أبي يعقوب يوسف سلطان الموحدين.

---

(١) قارن الحاشية التي كتبها الدكتور زيادة عن شعار السلطنة للمقريزي (٢/ ٤٤٣).

(٢) صبح الأعشى (٣/ ٤٨٦).

(٣) صبح الأعشى (٣/ ٤٧٨).

(٤) قارن أيضًا كتاب السلوك للمقريزي (طبعة الدكتور زيادة) (١/ ٤٥-٤٧، ٥٠، ٥٤).

(٥) Die Schätze der Fatimiden في Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft (Band 14 Heft ¾) ص٣٣٨-٣٣٩.

ومما كان يحفظ في خزائن الجوهر الطيب والطرائف السيف الخاص، وقد كان يحمل مع الخليفة في المواكب، ويقال: إنه كان من صاعقة وقعت وأخذت فعمل منها هذا السيف محلى بالذهب ومرصعًا بالجواهر، وله كيس مزين بالرسومات المذهبة وأمير من أعظم الأمراء يحمله عند ركوب الخليفة في الموكب[١].

وقد روى أحد الخبراء في الجواهر أنه استدعي ذات مرة في أيام الشدة هو وغيره من الجوهريين، وسئلوا في خزائن القصر عن قيمة صندوق مملوء بالزبرجد؛ فأجابوا بأنهم يعرفون قيمة الشيء إذا كان مثله موجودًا، بينما الذي عرض عليهم لا مثل له ولا تقدر له قيمة، فاغتاظ من حضر من الوزراء المعزولين -أو المعطلين كما يقول المقريزي- وأعطوا الزمرد لأحد القواد وحسب عليه فيه خمسمائة دينار[٢].

---

(١) خطط المقريزي (١/ ٤١٤).

(٢) خطط المقريزي (١/ ٤١٤) والدينار وحدة العملة الذهبية الإسلامية القديمة، وهو مشتق من كلمة (Denarius) باللاتينية التي كانت أسماء للعملة الفضية الرئيسية في روما. وحدث أن صارت العملة الذهبية الرومانية تعرف في الشرق الأدنى باسم (Denarius aureus) أي: دينار ذهبي، ثم أصبحت تعرف باسم (Denarius) فقط. وقد عرفها العرب قبل الإسلام باسم دينار وكانت معرفتهم بها من بيزنطة، وجاء في سورة آل عمران: {ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون}. وأكبر الظن أن الإصلاح الذي أدخله عبد الملك بن مروان في السكة سنة (٧٧هـ/ ٦٩٦م) لم يغير عيار العملة الذهبية البيزنطية التي عرفها العرب. ومهما يكن من شيء فالدينار يساوي نحو ٦٠ قرشًا ذهبًا.

وليس بغريب وجود هذا القدر من الزمرد في خزائن القصر، إذا تذكرنا ما كتبه القلقشندي[1] عن خواص الديار المصرية، وأن أعظمها خطرًا معدن الزمرد الذي لا نظير له في سائر أقطار الأرض، والذي يوجد عروقًا خضرًا في تطابيق حجر أبيض بـ..رة في جبل على ثمانية أيام من مدينة قوص[2]. ويذكر المقريزي أن الزمرد لم يزل يستخرج من الجبل المذكور حتى زمن الناصر محمد بن قلاون الذي توفي سنة (٧٤١هـ/ ١٣٤١م). وفضلًا عن ذلك فإننا نعرف من الذيل الذي كتبه أبو زيد في القرن الرابع الهجري على وصف رحلة التاجر سليمان إلى الهند والصين، نقول: إننا نعرف من هذا الذيل أن ملوك الهند كان «يحمل إليهم الزمرد الذي يرد من مصر مركبًا في الخواتيم مصونًا في الحقاق»[3].

وأتيح للجوهريين أن يشهدوا منظرًا آخر حين أتى بعقد جوهر فحصوه ورأوا أن قيمته لا تقل عن ثمانين ألف دينار؛ ولكن الوزراء ورؤساء الجند قدروه بألفي دينار غير أن سلكه انقطع، فتناثر حبه والتقطه الحاضرون من الرؤساء، واحتفظ كل منهم لنفسه بشيء منه، على نحو لا ترى الجماعات المنظمة مثاله إلا في أوقات الشدة والثورات.

(١) صبح الأعشى (٣/ ٢٧٦).

(٢) راجع: ما كتبه اليعقوبي في هذا الصدد ص٣٣٣، وانظر أيضًا: خطط المقريزي (طبعة فييت) (٤/ ١٠٨ وما بعدها).

(٣) راجع: ص١٤٧ من النص العربي في كتاب (M. Reinaud: Relations des Voyages faits par les Arabes et les Persans dans l'Inde et à la Chine).

ومما نهبه رؤساء الجند وكبار الموظفين المعزولين كمية كبيرة من الدر[١] والجواهر النفيسة بلغ كيلها نحو سبع ويبات، وكان قد بعث بها إلى الخلفاء الفاطميين أتباعهم بنو صليح من اليمن، ونهبوا كذلك من خزائن القصر ألفًا ومائتي خاتم ذهبًا وفضة، ذات فصوص من الأحجار الكريمة المختلفة الأنواع والألوان والأثمان، مما كان للمستنصر ولأجداده من قبله[٢]، وما أهدي إليهم من عمالهم ووجوه دولتهم، وكان منها ثلاثة خواتم مربعة من الذهب عليها ثلاثة فصوص: أحدها زمرد والآخران ياقوت، بيعت باثني عشر ألف دينار.

وشاهد الجوهريون كيسًا فيه نحو ويبة من الجواهر عجزوا عن تقدير قيمتها، وقالوا: إن مثلها لا يشتريه إلا الملوك؛ فقومها الأمراء ورؤساء الجند بعشرين ألف دينار، ودخل أحد كبار موظفي القصر إلى الخليفة المستنصر وأعلمه أن تلك الجواهر اشتراها جده الحاكم بأمر الله بسبعمائة ألف دينار، وكان يرى حينئذ أنها تساوي أكثر من هذا الثمن الذي دفعه فيها.

---

(١) ذكر (Chau Ju-Kua) في كتابه (Chu-fan-chi) ص٢٢٩، ٢٣٠ أن الدر أو اللؤلؤ الذي كان يؤتى به من بعض الجزائر العربية هو أحسن أنواع اللؤلؤ. كما ذكر أيضًا أن الدر كان يرد من سومطرة وسرنديب وساحل كروماندل وشاطئ عمان وجزائر الفيلبين وجزيرة جاوة. ومن لطيف ما ذكره في هذه المناسبة عن تهريب الدر إلى بلاد الصين أن التجار كانوا يخفونه في بطانة ملابسهم وفي مقابض مظلاتهم ليتخلصوا من دفع الرسوم اللازمة. وقد ذكر الإدريسي (١/ ٣٧٥) أن على الخليج الفارسي نحو ٣٠٠ من مصايد اللؤلؤ الشهيرة. راجع أيضًا: (Heyd: Histoire du Commerce au Levant) (٢/ ٦٤٨).

(٢) الواقع أن الفاطميين أمكنهم منذ رسخت قدمهم في مصر أن يجمعوا هم ووزراؤهم الثروات الطائلة، كما يتبين من الأموال والذهب واللؤلؤ والديباج والدر والزمرد التي خلفها جوهر القائد وابن كلس وزير العزيز بالله وبرجوان وزير الحاكم بأمر الله.

ويذكر المقريزي -نقلًا عن كتاب الذخائر والتحف- أن خزائن القصر كان فيها شيء كثير من البلور والتحف الفنية الزجاجية المحكمة الصنع والمموَّهة بالذهب وغير المموَّهة[١]، ومن الصيني والأواني المصنوعة من خشب الخلنج[٢]. كما كانت خزائن الفرش والبسط والستور والتعاليق غنية بمحتوياتها النفيسة. وقد قال أحد المستخدمين في بيت المال: إن صندوقًا من الصناديق التي نهبت من القصر ذات يوم كان مملوءًا بأباريق من البلور النفيس، بعضها منقوش بزخارف ورسومات جميلة، وبعضها غير منقوش. والظاهر أنها كانت لشراب الفقاع وهو نوع من البيرة كان منتشرًا في القاهرة في العصور الوسطى، وقد أشار إليه ناصر خسرو في كتابه «سفرنامه» عند الكلام على خلافة الحاكم[٣]، فقال: إنه لم يكن مباحًا لأي شخص أن يجفف زبيبًا، وذلك خشية أن يستخدم في صنع الخمر، ولم يكن يجرؤ أحد على شرب الخمر أو الفقاع؛ لأن هذا الشراب الأخير كان يعتبر مسكرًا وكان محرَّمًا لهذا السبب.

ويحدثنا المقريزي أن أحد الذين يوثق بهم نقل أن قدحًا من البلور النفيس الذي لا زخارف عليه بيع أمامه بمائتين وعشرين دينارًا، وأن خردادبا[٤] من البلور بثلثمائة

---

(١) انظر: (C.J.Lamm: Mittelalterlice Gläser) ص٥١١، ٥١٢.

(٢) الخلنج: كلمة فارسية معربة تطلق على نوع من الشجر يؤخذ منه خشب ثمين تصنع منه الأواني.

(٣) راجع: كتاب «سفرنامه» ص٤٤ من المطبعة الفرنسية لشيفير.

(٤) إبريق من البلور الصخري له عنق ضيق وجسم يزداد اتساع من أعلى إلى أسفل كالإبريق المحفوظ في كاتدرائية سان ماركو بالبندقية والذي يحمل كتابة باسم الخليفة الفاطمي العزيز. راجع: الجزء الثاني من كتاب تراث الإسلام، تعريب المؤلف ص٨٥، ٨٦.

وستين دينارًا، وأن كوز بلور بيع بمائتين وعشرة دنانير، وأن صحونًا مموهة بالمينا[١] كان يباع الواحد منها بمائة دينار أو أكثر.

وأكبر الظن أن كثيرًا من الكنوز التي نهبت من قصور الفاطميين اشتراها أفراد نقلوها إلى أنحاء أخرى من القيصرية الإسلامية. وقد نقل المقريزي[٢] حديث رجل رأى في طرابلس قطعتين من البلور النفيس غاية في النقاء وحسن الصنعة: إحداهما خردادي والأخرى باطية[٣]، مكتوب على جانب كل منهما اسم العزيز بالله، وكان ذلك الرجل اشتراهما من مصر من جملة ما أخرج من خزائن المستنصر، وقد رفض بعد ذلك بيعهما بثمانمائة دينار لجلال الدين الملك أبي الحسن علي بن عمار[٤].

وبلغ ما بيع من تحف القصر في مدة قصيرة على يد أبي سعيد النهاوندي، دون غيره ممن تولوا بيع تلك الكنوز الثمينة ثمانية عشر ألف قطعة من البلور والزجاج النفيس؛ كان يتراوح ثمن القطعة منها بين عشرة دنانير وألف دينار.

---

(١) المينا: مادة كالزجاج نصف شفافة تذاب وتستخدم في زخرفة المعادن كالذهب والفضة والنحاس، ويمكن أن تضاف إليها بعض الأكاسيد لإكسابها ألوانًا مختلفة، فيستطاع مثلًا أن يحصل بأكسيد القصدير على المينا البيضاء، وبأكسيد الكوبلت على المينا الزرقاء، وبأكسيد النحاس على المينا الخضراء. ويطلق اسم مينا أيضًا على المادة الزجاجية التي يطلى بها الخزف والزجاج وتجمد في نار الفرن فتكسب الخزف صقلًا ولمعانًا.

(٢) الخطط (١/ ٤١٤).

(٣) الباطية: إناء من الزجاج يملأ من الخمر ويوضع بين الشاربين يغترفون منه.

(٤) توفي سنة (٤٩٤هـ/ ١١٠١م) وهو من بني عمار في طرابلس الشام، وأخوه جمال الدولة ابن عمار مولى بدر الجمالي الذي صار وزيرًا للمستنصر وظل ينسب إلى سيده المذكور.

وكان في خزائن القصر عدد كبير من صواني الذهب، بعضها محلى بالمينا وعليه شتى أنواع الزخارف والألوان، كما وجد فيها أكثر من مائة كأس من حجر اليصب أو حجر الدم البازهر (نافي السم) وهو حجر غال من خواصه الوقاية من السم، فكانت الكئوس تصنع منه للأمراء والملوك لتوضع فيها الأشربة فيتغير لونها إذا كان بها شيء من السم[١]. ومما يجدر ذكره أن الفاطميين لم يمنعهم من جمع بعض الكئوس المذكورة إن كان منقوشًا عليها اسم الخليفة السني هارون الرشيد[٢].

وقد بيع من خزائن القصر عدا ذلك صناديق كثيرة مملوءة سكاكين مذهبة ومفضضة ذات أياد من الأحجار الكريمة، وعدد كبير من المحابر المختلفة الأحجام والأشكال والمصنوعة من الذهب أو الفضة أو خشب الصندل أو العود أو الأبنوس أو العاج[٣] والمحلاة بالجواهر والمعادن النفيسة. وكانت كلها آية في دقة الصنعة، وكان بينها ما يساوي ألف دينار، وما يساوي أكثر أو أقل من ذلك.

أما المشارب والأقداح من الذهب أو الفضة، فقد كان منها في خزائن القصر كميات وافرة، مختلفة الصناعة والأحجام، وكان بعضها مزينًا بزخارف محفورة

---

(١) وكانت تصنع منه الخواتم تلبس في الأصابع ويلحسها المرء إذا أصيب بالسم فيشفى على الفور. وقد ذكر الكاتب الصيني (Chau Ju-Kua) أن حجر البازهر كان يرد من آسيا الصغرى. والظاهر أنه كان يرد أيضًا من إيران وخراسان وأرخبيل الملايو. راجع: (Chau Ju-Kua: Chu-fan-chi) ص١٣٧-١٤١.

(٢) لسنا ندري هل كان ذلك منهم بسبب بغضهم لبني العباس وعلى سبيل الغيرة لهم كما كتب أبو المحاسن بشأن ثياب العباسيين. راجع: النجوم الزاهرة (٥/ ١٦).

(٣) كتب المؤلف الصيني (Chau Ju-Kua) في كتابه (Chu-fan-chi) نبذة عن تجارة العاج وأنواع الخشب.

ومملوءة بالمينا السوداء، على النحو الذي يعرف في الاصطلاح الفني الحديث بصناعة النيلو[١].

وقد بلغ من غرام الفاطميين بجمع التحف الفنية أن الأميرات كن ينافسن الأمراء في هذا الميدان وأن بعضهن تركن كنوزًا ثمينة، فرشيدة ابنة المعز ماتت سنة (٤٤٣هـ/ ١٠٥١م) وتركت تحفًا تُقدَّر قيمتها بنحو مليون وسبعمائة ألف دينار[٢]، منها ثلاثون ثوبًا من الخز الثمين، والخز كما نعرف قماش من الصوف والحرير[٣]، كما وجد في خزائنها بعض العمامات المرصعة بالجواهر، مما يذكر بعمامات الأمراء الهنود. ويقال أيضًا: إنها كانت تمتلك الخيمة التي توفي فيها هارون الرشيد بمدينة طوس[٤]، وقد كانت من الخز الأسود.

---

(١) النيلو (من اللاتينية nigellum) أسلوب في زخرفة الموحات المعدنية أتقنه الصناع الإيطاليون في القرن الخامس عشر الميلادي، وقوامه أن يحفر الرسم على اللوحة من الفضة أو الفضة الممزوجة بالذهب، ثم يصب في خطوطه المحزوزة مركب مرتفع الحرارة من النحاس والبودق والكبريت وملح النشادر، وبعد برود هذا المركب وتلميع اللوحة يصير فيها تكفيت أسود على أرضية فاتحة، ويزداد بذلك الرسم دقة ووضوحًا. وقد عرف البيزنطيون هذا النوع من الزخرفة ولكن الإيطاليين ولا سيما توماس فينجرا (Tomaso Finiguerra) هم الذين بلغوا فيه الذروة العليا.

(٢) أي: زهاء ثلاث أرباع مليون جنيه، وقد اتخذ المستشرق لين بول هذا الحديث دليلًا على أن ثروات الخلفاء الفاطميين كما دونها المؤرخون لا يمكن تصديقها دون تردد. راجع: (The Story of Cairo) للمستشرق المذكور ص١٣٣، وكتاب «لفاطميون في مصر» للدكتور حسن إبراهيم ص٢٤٤، وانظر: (Quatremère: Mémoires sur l'Egypte) (٢/ ٣١١).

(٣) كانت هذه الكلمة تطلق أحيانًا على ضرب من القماش المنسوج من الحرير الخالص. انظر: (Lane: Arabic-English Lexicon) ص٧٣١ وما يذكره من المراجع.

٤) خطط المقريزي (١/ ٤١٥).

والغريب أن الخلفاء العزيز والحاكم والظاهر والمستنصر كانوا كلهم ينتظرون وفاة الأميرة رشيدة ليرثوا ثروتها وتحفها الفنية[١]، ولكن لم يقض ذلك إلا المستنصر؛ فضم كل كنوزها إلى ما في خزائنه من تحف ثمينة وزادته غنى على غنى.

وكذلك خلفت الأميرة عبدة بنت المعز التي ماتت سنة (٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م) ثروة طائلة، وتحفًا لا تحصى، فقدر أن ما استخدم من الشمع في ختم خزائنها وصناديقها أربعون رطلًا مصريًّا؛ أي نحو ١٤ كيلو جرامًا، وأن القائمة التي ضمت بيان مخلفاتها من الأمتعة كتبت في ثلاثين رزمة من الورق، ومن التحف التي تركتها نحو أربعمائة سيف محلى بالذهب، ونحو أردب من الزمرد، وغير ذلك من الجواهر والأقمشة النفيسة والأباريق والطسوت من البلور الصافي[٢].

ومما وجد في خزائن القصر آنية من الصيني بعضها على شكل أنواع الحيوان المختلفة أو تحمله أرجل على هيئة الحيوان[٣].

وقد صنع فنانو العصر الفاطمي الأواني النحاسية والبرونزية على أشكال الحيوانات، مما اشتق منه في أوربا إبان العصور الوسطى الآنية التي تسمى أكوامانيل -من اللاتينية (aqua) بمعنى ماء و(manus) بمعنى يد- وكانت في الغالب أباريق

---

(١) الواقع أننا لم نعرف عن الأمراء المسلمين مثل هذا الحرص على جمع التحف الفنية اللهم إلا إذا استثنينا أمراء المغول في الهند وملوك إيران، على أن هؤلاء كانوا يوجهون جل عنايتهم إلى جمع الصور ونماذج الخطوط الجميلة. راجع: (Arnold: Painting in Islam) ص١٦ وما بعدها، و(Kühnel: Islamische Kleinkunst) ص٢٤

(٢) راجع: المصدر السابق لكترمير، ص٣١١، ٣١٢.

(٣) قارن (Aly Bahgat et F.Masseul: La Céremique Musulmane de l'Egypte) ص٨٧.

من النحاس الأصفر على شكل فارس أو حيوان أو طائر، وكان القسس يستخدمونها في غسل أيديهم قبل القداس وفي أثنائه وبعده.

والظاهر أن الأواني الصينية الفاطمية السالفة الذكر كانت كبيرة الحجم؛ لأنها كانت تستخدم في غسل الثياب.

وكان من نفائس منا في خزائن القصر حصيرة ذهب وزنها ثمانية عشر رطلًا[١] (نحو سبعة كيلو جرامات)، يقال :إن بوران بنت الحسن بن سهل[٢] جلست عليها يوم زواجها بالمأمون، ذلك الزوج الذي أقيمت في مناسبته حفلات عظيمة وأفراح فاخرة، وصفها الطبري وابن الأثير وابن خلكان وغيرهم من مؤرخي العرب.

ومما وجد في القصر ثمان وعشرون صينية من المينا المحلاة بالذهب، وأكبر الظن أنها كانت من صناعة بيزنطية؛ إذ إنها جاءت هدية للعزيز بالله الخليفة الفاطمي من

---

(١) كانت قيمة الأوزان والمكاييل تختلف كثيرًا باختلاف الزمن ونوع المادة التي يراد وزنها أو كيلها. راجع: البحث الذي نشره سوفير (Sauvaire) عن هذا الموضوع في المجلة الأسيوية (Journal Asiatique VIII, 4 (1884)) وراجع أيضًا: (Kahle: Die Schätze der Fatimiden) ص٣٣٥ وما بعدها وصحيفة ٣٦٢، وانظر أيضًا: البحث الذي نشره ديكوردمانش (Decourdemanche) في مجلة العملة (Revue Numismatique IV, 12, Paris 1908) ص٢٠٨-٢٥١، وراجع: الملاحظات التي كتبها جروهمان على القطعة رقم١٢٢ في الجزء الثاني من كتاب أوراق البردي بدار الكتب المصرية ص١٧٢-١٧٣ من النسخة الإنجليزية.

(٢) تزوجها المأمون لمكانة أبيها عنده وأقيمت حفلات العروس سنة (٢١٠هـ/ ٨٢٦م) في فم الصلح على مقربة من واسط ودفع نفقاتها الحسن بن سهل. ويقال: إن بوران توسطت لكي يعفو الخليفة عن إبراهيم بن المهذي فأطلق سراحه. راجع: ترجمة بوران في وفيات الأعيان لابن خلكان (١/ ١١٦).

بازيليوس الثاني إمبراطور بيزنطة. وقد قدِّرت كل صينية منها بثلاثة آلاف دينار، واستولى عليها ناصر الدولة الذي كان قائد الجند في ذلك الحين[١].

وكانت هناك أيضًا صناديق مملوءة مرايا[٢] من حديد محلاة بالذهب والفضة، وبعضها مكلل بالجواهر النفيسة، وله محفظات أو غلف من الكيمخت وهو نوع من الجلد المتين، وأخرى من الأقمشة الحريرية النفيسة، وكان للمرايا المذكورة مقابض من العقيق.

وقد أخذ من خزائن القصر آلاف الآلات المصنوعة من الفضة المكفتة بالذهب ذات النقش العجيب، والصنعة الدقيقة، كما وجدت كميات كبيرة من قطع الشطرنج والنرد المصنوعة من الجواهر والذهب والفضة والعاج والأبنوس، ولها رقاع من الحرير المنسوج بخيوط من الذهب.

---

(١) راجع المصدر السابق للأستاذ كاله (P.Kahle) ص٣٥٢.

(٢) ربما كانت المرآة أقدم ما أعرف من حاجيات الإنسان المتمدين، فقد جاء ذكرها في الكتب المقدسة ووجدت نماذج عديدة في قبور قدماء المصريين، وأكثر هذه المرايا المصرية يرجع إلى عصر الدولة الوسطى. وقد كانت المرايا في العصور القديمة تصنع من المعدن المصقول اللامع ولا سيما من البرونز أو النحاس أو الفضة، وأكبر الظن أن المرايا المصنوعة من الزجاج لم يذع استعمالها قبل العصر المسيحي؛ وإن يكن بعض المؤرخين ذكروا أنها كانت تصنع بصيدا في العصر الروماني. وعلى كل حال فقد كانت أكثر المرايا لقديمة صغيرة ومستديرة أو بيضية الشكل ولها مقبض تمسك به في اليد، وفي العصور الوسطى ظلت المعادن وحدها تستخدم في صنع المرايا واندثرت صناعتها من الزجاج حتى أحيتها مدينة البندقية في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي.

وأخرج الجند من القصر نحو أربعمائة قفص مملوءة بالأواني الفضية الثمينة المكفتة بالذهب، وقد سبكت كلها ووزعت على الثوار، واستولوا كذلك على أربعة آلاف قنينة مذهبة للنرجس وعلى ألفي قنينة للبنفسج، ووجد من السكاكين الثمينة ما بيع بأبخس الأثمان، وبلغت قيمته على الرغم من ذلك ستة وثلاثين ألف دينار؛ أي خمسة عشر ألف جنيه[1].

ويذكر المقريزي بين عجائب ما أخذه الثوّار متارد صيني[2]، محمولة على ثلاثة أرجل ملء كل متر د منها مائتا رطل من الطعام، كما يذكر الكلوته[3] المرصعة بالجوهر، وكانت من غريب ما في القصر ونفيسه، ويقول: إن قيمتها مائة وثلاثون ألف دينار، وإنها قدّرت في ذلك الوقت بثمانين ألف دينار، وكان وزن ما فيها من الجوهر سبعة عشر رطلًا.

(١) خطط المقريزي (١/ ٤١٥).

(٢) انظر: (Aly Bahgat et F.Massoul: La Céramique Musulmane) ص٨٧.

(٣) من الإيطالية (Calotta) وهي طاقية يلبسها كبار القوم وجمعها كلاوت. راجع: (R.Dozy) (Dictonnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes) ص٣٨٧، ولولا وزن ما فيها من الجوهر لظننا أن المقصود بها هنا تاج الخليفة وكانوا يسمونه التاج الشريف ويرون أنه يكسب الخليفة وقارًا شديدًا، وكان الخليفة يلبسه في المواكب العظام وفيه جوهرة عظيمة تعرف باليتيمة زنتها سبعة دراهم وحولها جواهر أخرى أقل منها حجمًا. راجع: صبح الأعشى للقلقشندي (٣/ ٤٧٢)، ولكن ربما كان المقصود تاجًا رمزيًّا يحمله أحد الأمراء ويسير به في موكب الخليفة. انظر أيضًا: حاشية الدكتور زيادة في السلوك للمقريزي (٢/ ٤٩٣، ٤٩٤).

ويشير المقريزي أيضًا إلى قاطرميز[١] من البلور، فيه صور ناتئة وكان يسع سبعة عشر رطلًا.

ومن أجمل النفائس التي كانت تزين القصر الكبير تحف على شكل حيوانات وطيور؛ منها طاوس من ذهب مرصع بالجواهر النفيسة، عيناه من ياقوت أحمر وريشه من الزجاج المموه بالمينا على ألوان ريش الطاوس، ومنها ديك من الذهب له عرف كبير من الياقوت الأحمر مرصع بالدر والجواهر، ومنها غزال مرصع أيضًا بالجواهر النفيسة، ومائدة كبيرة واسعة من اليصب[٢]، وأخرى من العقيق، ونخلة من الذهب مكللة ببديع الدر والجوهر يمثل أجزاءها وما تحمله من بلح، ثم دواج[٣] مرصع بنفيس الجوهر ومثزرة مكللة بحب لؤلؤ نفيس. هذا كله عدا ما كان في الخزانة من الأثاث الفاخر المرصع بالجواهر، والذي كان معدًّا لتزيين القوارب النيلية[٤] التي كانت تستخدم يوم فتح الخليج[٥]، وعدا غيره من التحف التي كانت

---

(١) القاطرميز: وعاء عميق ذو غطاء. راجع: المصدر السابق للأستاذ كاله (Kahle) ص٣٤٩.

(٢) اليصب أو حجر الدم: حجر صلب وكثيف يشبه العقيق وفيه أشرطة وبقع من الألوان.

(٣) الدواج بضم الدال وفتح الواو مع تخفيفها أو تشديدها هو المعطف.

(٤) ذكر المقريزي (الخطط ١/ ٣٧٨) أن أحد هذه القوارب كان يسمى الصقلي؛ لأن نجارًا من رؤساء الصناعة صقلي الاصل أنشأه وجعله فريدًا بين أمثاله، وقد أتينا على هذا الحديث تأييدًا للعلائق الفنية بين الفاطميين وصقلية.

(٥) راجع: خطط المقريزي (١/ ٤٧٠ وما بعدها). ونذكر في هذه المناسبة أن تلك القوارب النيلية كان لها في عصر الفاطميين وبعده أسماء شتى نجد شرحها في الحواشي التي كتبها كترمير ودي ساسي وفييت وبلوشيه وزيادة وغيرهم على ما نشروه من النصوص التاريخية، هذا فضلًا عما نجده منها في القواميس العربية وفي معاجم لين ودوزي وغيرهما، وفي الرسالة التي صنفها بالألمانية هانس كندرمان بعنوان: (Hans Kindermann: Schiff in Arabischen: Untersuchung über Vorkommen und Bedeutung der Termini) كما نجد بعض البيانات

عظيمة القيمة بمادتها، وبما كان يزينها من الأحجار الكريمة، وما كان عليها من الزخارف في أغلب الأحيان[١].

ولا يسعنا أن نختم الكلام عن خزانة الجوهر والطيب والطرائف دون الإشارة إلى ما كتبه العالم الصيني شاويوكو (Chau Jo-Kua) في وصف مصر أو القاهرة، فقد سمع عنها من مصادر مختلفة ركّن يظن أنها عاصمة بلاد العرب، وأتى في وصفها بحقائق قد تصدق على بغداد أو دمشق. ومهما يكن من شيء فقد ذكر أنها كانت مركزًا خطير الشأن للتجارة مع البلاد الأجنبية، وأن ملكها كان يلبس عمامة من الديباج والقطن الأجنبي، وكان في كل هلال جديد وفي تمام كل قمر يضع على رأسه غطاءً مسطحًا من الذهب الخالص مثمن الجوانب ومرصعًا بأثمن الجواهر، وكان ثوبه من السندس، وله منطقة من حجر اليشب وأحذية من الذهب، وكانت الدعائم في قصره من العقيق، والجدران من الرخام، والقراميد من البلور الحجري، والستر والأغطية من الديباج المنسوجة فيه الرسوم الفاخرة بشتى الألوان وبخيوط الذهب والحرير، أما العرش فمرصع بالدر والجواهر الثمينة وعتباته مغطاة بالذهب الخالص، بينما كانت كل الأواني والأدوات التي تحيط بالعرش من الذهب أو الفضة، وكان الحاجز الموضوع بجواره مرصعًا بالدر النفيس[٢]. وفي المواسم والحفلات

اللازمة في مقالين لكولان بالمجلد العشرين من نشرة المعهد الفرنسي (G.Colin: Notes de Dialectologie Arabe)

(١) انظر: المصدر السابق (١/ ٤١٦).

(٢) قارن هذا بما كتبه ناصر خسرو في وصف عرش المستنصر (سفرنامه) ص١٥٨، وراجع: (Lane-Poole: The Art of Saracens) ص١٦٢ و(Briggs: Muhammadan Architecture in Egypt) ص٦٥ و(Migeon: Manuel d'art musulman) (٢/ ٥، ٦) و(Herz: Catalogue raisonné du Musée Arabe) ص١٦٥-١٦٦.

العظيمة بالبلاط كان الملك يجلس خلف هذه الحاجز، وعلى جانبيه وزراؤه وهم يحملون الدرق الذهبية وعلى رءوسهم الخوذ من الذهب أيضًا، وفي أيديهم السيوف الثمينة[1].

(١) انظر: (Chu Ju-Kua: Chu-fan-chi) ص١١٥، وراجع الكتب الآتية لتتبين مظاهر الجلال والأبهة في بلاط الفاطميين ولاسيما في المواسم والأعياد وصلاة الجمعة: الباب الثامن من «الفاطميون في مصر» للدكتور حسن إبراهيم: وصبح الأعشى للقلقشندي (٣/ ٤٩٨ - ٥٢٢)، وخطط المقريزي (١ / ٤٣٠، ٤٥١، ٤٧٠).

خزائن الفرش والأمتعة

نقل المقريزي عن ابن عبد العزيز الأنماطي أحد الدَّلَّالة الذين تولوا بيع نفائس القصر أن قطع الأقمشة النفيسة المذهبة التي استولى عليها الثوَّار كانت أكثر من مائة ألف قطعة؛ منها خمسون ألف قطعة من النسيج الخسرواني كان أكثرها مذهبًا، ومنها مرتبة بيعت بثلاثة آلاف وخمسمائة دينار؛ وأخرى قلمونية[1] بيعت بألفين وأربعمائة دينار، وثلاثون سندسية بيعت كل واحدة منها بثلاثين دينارًا، وقد بيع هذا كله بأقل القيم وأبخس الأثمان، وذلك في مدة خمسة عشر يومًا من شهر صفر سنة (٤٦٠هـ/ ١٠٦٧-١٠٦٨م)[2].

وأرسل الجند إلى خزانة من خزائن الفرش كنت تعرف باسم خزانة الرفوف، وسميت بذلك لكثرة رفوفها، فأخذوا منها ألفي عدل[3] من النسيج الخسرواني المذهب والمزين بالرسوم والصور والزخارف ووجدوا في عدل منها أجلة أعدت

---

(١) خطط المقريزي (١/ ٤١٦).

(٢) نسبة إلى قلمون أو أبو قلمون أو بوقلمون وهي الحرباية (من اليونانية (Khamailén) والفرنسية (caméléon) بمعنى أسد الأرض أو الحرباية) وأطلق هذا الاسم على نوع من النسيج كان يصنع في بلاد اليونان ثم في مصر ولا سيما بتنيس ومن خواصه أنه يظهر بألوان شتى على حسب تعرضه للشمس والوضع الذي يكون فيه واختلاف ساعات النهار. وقد ذكر ناصر خسرو أنه كان يُصدَّر من مصر إلى البلاد الشرقية والغربية. راجع أيضًا: المقدسي ص٢٤٠، والاصطخري ص٤٢.

(٣) العدل بكسر وسكون: الغرارة أو الجوالق أو الكيس الكبير. انظر: معاجم اللغة، وراجع أيضًا: (Dozy: Supplément aux Dictionnaires Arabes)، (٢/ ١٠٣).

لتلبسها الفيلة، وكانت أيضًا من الخسرواني المذهب إلا في موضع نزول أفخاذ الفيل ورجليه.

ومما وجد في الخزائن المذكورة سجاجيد وفرش وستور مطرزة بالذهب والفضة وعليها شتى أنواع الزخارف[1]، ولا سيما رسوم الطيور والفيلة. وإن صح ما نقله المقريزي[2] فقد كان منسوجًا بالذهب على بعض الستور صور الدول وملوكها والمشاهير فيها، مكتوب على صورة كل واحد اسمه ونبذة من أخباره. وقصارى القول أن الذي أخرجه الجند من خزائن الفرش كان يكفي لتأثيث بيوت كاملة بما تشتمل عليه من مراتب ووسائد ومساند وبسط، وقد استولى أحد رؤساء الجند على مقطع من الحرير الأزرق غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير، وفيه صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها وطرقها، وفيه صورة مكة والمدينة[3]، ومكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه أو اسمها بالذهب أو الفضة أو الحرير، وكان في نهاية المقطع العبارة الآتية:

«مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقًا إلى حرم الله وإشهارًا لمعالم رسول-الله في سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة».

---

(١) قارن هذا بما جاء عن الفراش خناه في نهاية الأرب للنويري (٨/ ٢٢٧).

(٢) الخطط (١/ ٤١٧).

(٣) جاءت صورة الكعبة على بعض التحف الخزفية كالقطعة رقم ٨٦٠ بدار الآثار العربية، وهي لوحة كبيرة من القاشاني المصنوع في دمشق. كما نراها أيضًا على القاشاني في سبيل عبد الرحمن كتخدا. وقد كتب الأستاذ اتنجهوزن مقالًا عما وصل إلينا من صور الكعبة ورسومها، وذلك في المجلد الثاني عشر من مجلة الجمعية الشرقية الألمانية R.Ettinghausen: Die bidliche Darstellung der Ka'ba im islamischen Kulturkreis Zeitschrift des Deutschen Morgenländischen Gesellschaft- Band 12 Heft 3-4 في ص١١١-١٣٧.

وذكر المقريزي أن المعز أنفق في سبيل إتمام هذا المقطع اثنين وعشرين ألف دينار. والواقع أن سياسة الفاطميين العامة، والأبهة والجلال اللذان كانا ميزة حكمهم، كل ذلك جعلهم يعنون كل العناية باختيار أجمل الفرش وأثمنها وأبدع الستور وأغلاها لقاعات قصورهم ولا سيما لقاعة الذهب التي أسسها العزيز ليجتمع فيها مجلس الملك.

خزائن السلاح

وكذلك كانت خزائن السلاح بالقصور الفاطمية عامرة غنية، وإن صح ما نقله المقريزي، فقد جمع الخلفاء الفاطميون فيها أسلحة عظيمة القيمة التاريخية كالسيف المسمى ذي الفقار[1]، وهو السيف المشهور الذي غنمه النبي في وقعة بدر بعد أن كان مِلْكًا لعربي من المشركين اسمه منبه بن الحجاج، وقد ذاع صيت هذا السيف حتى قيل: لا سيف إلا ذو الفقار، وهي العبارة التي نراها منقوشة على السيوف الأثرية،

(١) هو أحد السيوف الخمسة (أو السبعة في رواية أخرى) التي جاء في الأساطير أن بلقيس ملكة سبأ أهدتها إلى سليمان وهي: ذو الفقار وذو النون ومخدم ورسوب والصمصامة. راجع: (Schwarslose: Die Waffen der Alten Araber) ص١٩٤. وسمي كذلك بسبب الفقار؛ أي الخزوز في صلبه.

وقد آل هذا السيف إلى علي بن أبي طالب بعد وفاة النبي، ثم إلى الخلفاء العباسيين[١] من بعده. ولسنا ندري كيف حصل عليه الخلفاء الفاطميون[٢].

ويقال أيضًا: إن خزانة السلاح الفاطمية كانت تحوي بين جدرانها صمصامة عمرو بن معدي كرب[٣]، وسيف عبد الله بن وهب

---

(١) جاء في كتب التاريخ أن هارون الرشيد حين أرسل قائده يزيد بن مزيد الشيباني ليقمع ثورة الوليد بن طريف أعطاه ذا الفقار سيف النبي فنصر به. وقيل في سبب وصول ذي الفقار إلى هارون الرشيد: إن هذا السيف كان مع محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب يوم قتل في محاربته لجيش أبي جعفر المنصور العباسي، فلما أحس محمد بالموت دفع ذا الفقار إلى رجل من التجار كان معه وكان له عليه أربعمائة دينار وقال له: خذ هذا السيف فإنك لا تلقي أحدًا من آل أبي طالب إلا أخذه منك وأعطاك حقك. فكان السيف عند ذلك التاجر، حتى ولي جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب اليمن والمدينة، فأخبر عنه فدعا بالرجل، فأخذ منه السيف وأعطاه أربعمائة دينار فلم يزل عنده حتى قام الخليفة المهدي واتصل خبره به فأخذه ثم صار إلى موسى الهادي ثم إلى أخيه هارون الرشيد. وقيل: إن ذا الفقار آل بعد ذلك إلى الخليفة المقتدر.

(٢) ولسنا نستطيع أن نؤكد أن السيف الذي كان في خزانة الفاطميين والذي كانوا يعرفونه بهذا الاسم كان حقًا السيف المشهور الذي استولى عليه النبي في غزوة بدر، فإن إطلاق أسماء التحف أو المخلفات المشهورة على تحف أو مخلفات تشبهها أمر ذائع بين الشعوب المختلفة ولا سيما في العصور التي لم تكن فيها وسائل علمية كافية لإثبات الدعاوى أو تفنيدها.

(٣) هو عمرو بن معدي يكرب الزبيدي الفارسي العربي المشهور، وقد صارت يذكر سيفه الركبان، واعتبره العرب أمضى السيوف قاطبة وكانوا ينسبونه إلى بلاد العرب الجنوبية ويرجعونه إلى أقدم العصور، على عادة العرب في الاستدلال على مضي أسلحتها بقدم عهدها ووراثتها عن الآباء والأجداد. فعمرو بن معدي كرب يحدثنا عن سيفه الصمصامة كان مِلْكًا لابن ذي قيعان من قوم عاد، وذلك في قصيدته المشهورة:

أعاذل عدتي بدني ورمحي وكل مقلص سلس القياد

الراسبي[1]، وسيف كافور، وسيف المعز ودرعه، وسيف أبي المعز، وسيف الحسن بن علي بن أبي طالب، ودرقة حمزة بن عبد المطلب، وسيف جعفر الصادق.

أعـــاذل إنـــما أفنـــى شـــبابي إجـــابتي الـــصريخ إلى المنـــادي

وســيف لابــن ذي قيعــان عنــدي تخــير نــصله مــن عهــد عــاد

والمعروف ان هذا السيف المشهور انتقل في حياة عمرو بن معدي كرب إلى خالد بن سعيد بن العاص الصحابي الأموي والروايات مختلفة في هذا الشأن؛ فمن قائل: إن خالدًا أخذه بعد أن هزم عمرًا وأرغمه على الفرار، وذلك حين اشترك الأخير في ثورة الأسود العنسي الذي ادعى النبوة؛ ومن قائل: إن عمرًا افتدى به أخته ريحانة التي أسرت في تلك الحرب.

وبعد وفاة خالد بن سعيد صارت الصمصامة إلى ابن أخيه سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص، ثم فقدها هذا يوم جرح دفاعًا عن عثمان بن عفان حين حوصر في بيته بالمدينة، وأصاب أعرابي الصمصامة، وظلت عنده حتى جاء بها إلى معاوية يومًا، وسعيد حاضر، فعرفها وأخذها بعد أن أثاب الأعرابي، وظلت في أسرة بني العاص حتى باعها أيوب بن أبي أيوب بنحو خمسين ألف درهم إلى الخليفة المهدي، وورثها خلفاؤه العباسيون وقد قتل بها الخليفة الواثق سنة (٢٣١هـ/ ٨٤٥-٨٤٦م) أحمد بن نصر الخزاعي الذي اتهم بالتآمر عليه وبأنه قال بعدم خلق القرآن. وأتى الطبري في هذه المناسبة بوصف الصمصامة فقال: «وهي صفيحة موصولة من أسفلها مسمورة بثلاثة مسامير تجمع بين الصفيحة والصلة».

وآلت الصمصامة بعد الواثق إلى المتوكل، ولسنا نعرف كيف وصلت بعد ذلك إلى خزانة الفاطميين، إن صح إنها هي هي التي كانت في خزانة أسلحتهم. وقد أتى النويري في الجزء السادس من نهاية الأرب ص٢١٣ بأبيات في وصف الصمصامة.

(١) من راسب وهي قبيلة من الأسد، وقد كان عبد الله بن وهب مقدمًا بين الخوارج حين انفصلوا عن علي بن أبي طالب فولوه عليهم أمير المؤمنين سنة (٣٧هـ/ ٦٥٨م) وقد قتل في وقعة النهروان بين علي بن أبي طالب والخوارج.

وكان في خزانة السلاح آلاف القطع من الخوذ[١]، والدروع، والتجافيف [٢]، والسيوف المحلاة بالذهب والفضة، والسيوف الحديدية، وصناديق النصول[٣]، وجعاب السهام الخلنج[٤]، وصناديق القسي، ورزم الرماح الزان الخطية، وشدات القنا[٥] الطوال، والزرد[٦]، والبيض[٧].

وقد نقل المقريزي عن ابن الطوير أن الخليفة كان يزور خزانة السلاح فيطوفها، ثم يجلس على سرير أعد فيها ويتأمل ما فيها من الكزاغندات[٨] المدفونة بالزرد،

---

(١) جمع خوذة وهي معربة غن الفارسية للمغفر أو الحبيكة أو الزرد الذي ينسج من الدروع على قدر الرأس ويلبس تحت القلنسوة.

(٢) جاءت هذه الكلمة في خطط المقريزي (١/ ٤١٧): تخافيف، وأصلحها الأستاذ فييت: تجافيف، جمع تجفاف وهي آلة للحرب يلبسها الفارس ويتقي بها كأنها درع، وترادف كلمة البركستوان أو البركصطوان التي استعملت في عصر المماليك. راجع: (G.Wiet: Notes d'Epigraphie Syro-musulmane) في المجلد السابع من صحيفة (Syria) ص١٧٢. راجع أيضًا: حاشية الدكتور زيادة في السلوك للمقريزي (١/ ١٧٧).

(٣) نصول ونصال جمع نصل، وهو حديد السيف أو زره، وحديد السكين، وسن الرمح والسهم. وقد جاء في الأمثال: أضيع من غمد بغير نصل. وقد يطلق النصل على السيف كله.

(٤) الظاهر أن السهام الخشبية كانت تسمى نبال أو أنبال (جمع نبل)، بينما يسمى السهم سهمًا إذا كان من البوص. راجع: (Schwarzlose: Die Waffen der Alten Araber) ص٢٨٠.

(٥) ربما كان معناها رزم القنا؛ أي التي شدت في ربطة واحدة.

(٦) زرد الدرع صنعها من الحلقات الحديدية الضيقة، والزرد الدرع المزرودة.

(٧) بيضة الرأس أو الخوذة أو المغفر، وسميت كذلك لأنها تشبه البيضة في شكلها.

(٨) انظر: ص.. وملاحظة في الهامش. وراجع أيضًا: ص٣٣٤ من كتاب شورتزلوزه (Schwarzlose: Die Waffen der Alten Araber)، وحاشية الدكتور زيادة في السلوك للمقريزي (١/ ٢٥٣).

المغشاة بالديباج، المحكمة الصناعة، والجواشن المبطنة المذهبة، والزرديات السابلة[١] برءوسها، والخود المحلاة بالفضة، والزرديات والسيوف على اختلافها من العربيات، والقلجوريات[٢]، والرماح القنا[٣] والقنطاريات[٤] المدهونة والمذهبة، والأسنة البرصانية[٥]، والقسي[٦] لرماية اليد المنسوبة إلى صناعها، مثل الخطوط

---

(١) لعله يقصد المسبلة أو المرخاة فوق نصب.

(٢) لعلها القلعيات نسبة إلى القلعة وهي موضع بالبادية على مقربة من حلوان بالعراق، وإليها تنسب السيوف وفي ذلك يقول الراجز:

محارف بالشاء والأباعر   مبارك بالقلعي الباتر

أو لعلها من قلج التركية بمعنى سيف. وأكبر الظن أن هذه هي الكلمة التي جاءت في كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل ونقلها الدكتور زيادة «ملحورية» في حاشيته بالسلوك للمقريزي (٢/ ٤٩٧) دون أن يصل إلى معناها.

(٣) الرمح آلة للطعن. والرماح نوعان: أحدهما متخذ من القنا، وهو كما يقول القلقشندي: قصب مسدود الداخل ينبت ببلاد الهند، يقال للواحدة منه: قناة، ويقال لمفاصلها: أنابيب، ولعقدها: كعوب. ويوصف القنا بالخطي نسبة إلى الخط -بالفتح- وهي بلدة بالبحرين إليها الرماح من الهند وتنقل منها إلى بلاد العرب. والنوع الثاني ما يتخذ من الخشب كالزان ونحوه ويسمى الذابل. صبح الأعشى للقلقشندي (٢/ ١٣٣، ١٣٤).

(٤) القنطري أو القنطاري أو القنطرية أو القنطارية هي الرمح، وأصلها في الحقيقة خشب الرمح وهي من اليونانية. راجع: (Dozy: Supplément aux dictionnaires arabes) (٢/ ٤١٣). وانظر أيضًا: نهاية الأرب للنويري (٦/ ٢١٥).

(٥) لم نعثر على معنى «البرصانية» ولعلها الخرصانية من الخرص بالكسر بمعنى السنان والرمح اللطيف القصير يتخذ من خشب منحوت. انظر: (Schwrzlose: Die Waffen der alten Araber) ص٢٣١.

(٦) قال القلقشندي: القوس وهي مؤنثة، والقسي على ضربين: أحدهما العربية وهي التي من خشب فقط، ثم إن كانت من عود واحد قيل لها: قضيب، وإن كانت من فلقين قيل لها: فلق.

المنسوبة إلى أربابها، فيحضر إليه منها ما يجرّبه، ويتأمل النشاب[١]، وكانت فصوله مثلثة الأركان على اختلافها، ثم قسي الرجل والركاب، وقسي اللولب الذي زنة نصله خمسة أرطال، ويرمى من كل سهم بين يديه، فينظر كيف مجراه، والشاب الذي يقال له: الجراد وطوله شبر يرمي به عن قسي في محار معمولة برسمه فلا يدري به الفارس أو الراجل إلا وقد نفذ، فإذا فرغ من نظر ذلك كله، خرج من خزانة الدرق وكانت في المكان الذي هو خان مسرور، وهي برسم الاستعمالات للأساطيل من الكبورة الخراجية والخود الجلودية إلى غير ذلك؛ فيعطي مستخدمها خمسة وعشرين دينارًا ويخلع على متقدم الاستعمالات جوكانية[٢] مزيدة حرير أو عمامة لطيفة[٣].

وأكبر الظن أن خزانة السلاح كانت تشتمل على عدد كبير من الأدوات التي كانت توزع على حرس الخليفة وحاشيته للسير بها في المواكب والاحتفالات، وكانت تعاد بعد ذلك إلى خزانة السلاح، كما كان يحمل إليها سلاح من توفي من الأمراء ورجال الحاشية والحرس.

والثاني الفارسية وهي التي تركب من أجزاء: من الخشب والقرن والعقب والغراء، ولأجزائها أسماء يخص كل جزء منها اسم. صبح الأعشى (٢/ ١٣٤، ١٣٥).

(١) قال القلقشندي: النبل ما يرمى به عن القسي العربية. والنشاب: ما يرمى به عن القسي الفارسية. صبح الأعشى (٢/ ١٣٥).

(٢) لم نستطع العثور على معنى هذه الكلمة، ولعل صحتها «نوقانية» أي سلطة أو «جاكنة».

(٣) خطط المقريزي (١/ ٤١٧).

وطبيعي أن يكون في خزانة السلاح عمال يتعهدون محتوياتها ويقومون في الوقت المناسب بالإصلاح التي تحتاجه من مسح ودهان وصقل وجلاء وشحذ وتثقيف وخرز وغير ذلك[1].

(١) راجع: نهاية الأرب للنويري (٨/ ٢٢٨) و(٦/ ٢٠٠ وما بعدها).

خزائن السروج

نقل المقريزي عن ابن الطوير أن خزائن السروج الفاطمية كانت تحتوي على ما لا تحتوي عليه مثلها في مملكة من الممالك، وهي قاعة كبيرة تحت جدرانها مصطبة علوها ذراعان؛ وعلى المصطبة متكآت، على كل متكأ ثلاثة سروج متطابقة، وفوقه في الحائط وتد مدهون مضروب في الحائط قبل تبييضه، ومعلق فيه ما يلزم السروج من لجم وقلائد وأطواق مصنوعة أكثر أجزائها من الذهب أو الفضة أو محلاة بهما[1].

وقد جاء في كتاب الذخائر والتحف أن الثوّار أخرجوا من هذه الخزائن صناديق سروج محلاة بالفضة، وجد على صندوق منها: «الثامن والتسعون والثلثمائة»؛ مما يجعلنا نظن أنها كانت تحمل أرقامًا متسلسلة، وأنها كانت لا تقل عن ثمانية وتسعين وثلاثمائة.

وكان ثمن بعض السروج المحفوظة في الخزنة يتراوح بين ألف دينار وسبعة آلاف، وكان أقل ما فيها قيمة أحسن مما يمتلكه سائر الأفراد، وكان لكثير من أرباب الرتب ورجال الحاشية حق استعمال هذه السروج؛ إلا ما كان منها غالي القيمة، وجعل لركاب الخليفة خاصة.

وأما العمال والصناع الذين كانوا ملحقين بالخزانة، يدأبون على العمل فيها، فقد كان عددهم كبيرًا؛ من صاغة وخرازين ومركّبين.

---

(١) الخطط (١/ ٤١٨).

وبعد فوات الشدة العظمى عاد إلى هذه الخزانة -كسائر الخزائن الفاطمية- بعض أبهتها، وجمع الخلفاء فيها عددًا كبيرًا من السروج النفيسة، منها نوع أمر بصنعه الآمر بأحكام الله سنة (٤٩٥-٥٢٤هـ/ ١١٠١-١١٣٠م) جعل قرابيصه[١] مجوفة، وبطنها بصفائح من قصدير ليجعل فيها الماء، وجعل لها فمًا فيه صفارة، فإذا دعت الحاجة شرب منها الفارس، وكان كل سرج منها يسع سبعة أرطال ماء[٢].

ومهما يكن من شيء فإن العرب كانوا يعنون بالركوب والصيد عناية فائقة؛ وكان السرج أهم أدوات الركوب، ولم تكن خزانة السروج عند الفواطم وقفًا على ما يختصون به من السروج المغشاة بالذهب واللجم المطلية بالذهب والمحلاة جوانبها بالفضة، والكنابيش[٣] والمهاميز من الذهب أو الفضة أو الحديد المطلي بالذهب أو الفضة؛ بل كان فيها من كل تلك الأدوات أنواع تقرب من التي اختص بها الخليفة، وأنواع لأرباب الرتب العالية من حشمه وأتباعه، وأنواع دون ذلك تعار إلى عامة الخدم والأتباع في أيام المواكب والاحتفالات[٤].

وقد كان نظام خزائن السروج الفاطمية دقيقًا، وكانت محتوياتها تجرد في بعض المواسم فيظهر ما ينقص منها، ويلزم عمالها بإحضاره أو دفع قيمته.

---

(١) جمع قربوص أو قربوس وهي كلمة معربة ومعناها: حنو السيف أو مقدمه.

(٢) خطط المقريزي (١/ ٤١٨).

(٣) جمع كنبوش وهو ما يستر به مؤخر ظهر الفرس وكفله. قارن حاشية الدكتور زيادة في السلوك للمقريزي (٢/ ٤٥٢).

(٤) راجع: صبح الأعشى للقلقشندي (٢/ ١٢٨، ١٢٩)، (٣/ ٤٧٧)، (٤/ ١٢).

وكان الخليفة يزورها، فيطوف فيها من غير جلوس، ويعطي العامل عليها أو «حاميها» عشرين دينارًا لتوزيعها على المستخدمين. ويروى أن الخليفة الحافظ لدين الله احتاج يومًا إلى شيء فيها، فجاء إليها مع الحاشي فوجد الشاهد[١] غير حاضر، ووجد ختمه عليها فرجع إلى مكانه وقال: «لا يفك ختم العدل إلا هو ونحن نعود في وقت حضوره».

ومما يذكره المقريزي في الكلام عن خزانة السلاح أن أول من ركب أعيان دولته على خيوله بأدوات من الذهب في المواسم هو العزيز بالله، وليس هذا بمستغرب من هذا الخليفة الذي يؤثر عنه أنه قال: «يا عم! أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة، وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر، ولهم الخيل[٢] واللباس والضياع والعقار، وأن يكون ذلك كله من عندي»[٣].

ولا يسعنا أن نختم الكلام عن خزانة السروج دون أن نشير إلى أن مصر كانت مشهورة منذ الفتح الإسلامي بصناعة أجلال الخيل، حتى كانت هذه الأدوات مما

---

(١) لعله العامل المسئول عن محتوياتها أو «العهدة» كما يقال في اصطلاح الحكومة ومخازنها في الوقت الحاضر، ولكن المفهوم من رواية المقريزي (١/ ٤١٨) أن وظيفة هذا الشاهد مراقبة غلق الخزانة ثم ختمها ومراقبة فتحها والتحقق من أن ختم سليم لم يمس.

(٢) كتب ابن الأثير (٩/ ٤٠) أن العزيز بالله كان أسمر طويلًا أصهب الشعر عريض المنكبين عرافًا بالخيل والجوهر. قارن (Mez: Die Renaissance des Islams) ص١٢.

(٣) انظر: النجوم الزاهرة لأبي المحاسن (٤/ ١٢٥) (Wiet: Précis de l'histoire d'Egypte) (٢/ ١٨٠)، والفاطميون في مصر للدكتور حسن إبراهيم ص٢٤٧، وقد ضرب متز (Mez) مثلًا بالحكاية التي قيلت فيها هذه العبارة على أن العزيز كان أول ممثل للفروسية العربية التي ذاع صيتها في الغرب إبان العصور الوسطى. (انظر: المصدر السابق لمتز).

يرسله العمال إلى الخلفاء في حاضرة القيصرية الإسلامية. وقد كتب ابن إياس في هذا الصدد:

«وكانت الخلفاء تشترط على عمال مصر في تقليدهم الخيل العربية، والأثواب الدبيقية شغل تنيس، والمقاطع الشرب الإسكندرانية، والطرز الصعيدية، وأجلال الخيل؛ ويشترط عليهم ضيافة العسل النحل المصري من عسل بنها، وتشترط عليهم البغال والحمير وغير ذلك من الأصناف التي لا توجد إلا بمصر»[1].

(١) تاريخ مصر لابن إياس (١/ ٣١).

خزائن الخيم

نقل المقريزي عن كتاب الذخائر والتحف أن الثوّار أخرجوا من خزائن الخيم عددًا كبيرًا جدًّا من أنواعها المختلفة، مصنوعة من أجمل أنواع النسيج الديباقي، والمخمل، والخسرواني، والديباج الملكي، والأرمني، والبهنساوي، والكردواني، «ومنها المفيل، والمسبع، والمخيل، والمطوس، والمطير، وغير ذلك من سائر الوحوش، والطير والآدميين من سائر الأشكال والصور البديعة» أي ما كانت تزينه رسوم السباع والخيل والطواويس وسائر الوحوش والطيور، فضلًا عن المحلى بالصور الآدمية الجميلة وبالنقوش النباتية والهندسية الرائعة، وكل ذلك يذكر بخيمة سيف الدولة التي وصفها المتنبي في أبيات سنأتي بها في القسم الثاني من هذا الكتاب.

وكانت بعض أعمدة الخيام ملبسة بأنابيب الفضة، كخيمة العزيز التي وصفها ابن ميسر[1].

ومما أخرجه الجند الثائرون في الشدَّة العظمى فسطاط ضخم جدًّا كان يسمى المدورة الكبرى، محيطه خمسمائة ذراع، وعدد قطع قماشه أربع وستون قطعة، نقش عليها شيء كثير من رسوم الحيوانات وشتى الزخارف والأشكال[2]، وكان هذا الفسطاط قد صنع للوزير اليازوري، واشتغل في صنعه مائة وخمسون صانعًا وفنانًا، وبلغت نفقته ثلاثين ألف دينار واستغرق إتمامه مدة تسع سنين[3].

---

(١) انظر: أخبار مصر ص ٥٠.

(٢) أشار المقريزي في ذكر ما كان يعمل يوم فتح الخليج (الخطط ١/ ٤٧٤) إلى الخيام التي جمعت شتى الصور الآدمية والوحشية.

(٣) خطط المقريزي (١/ ٤١٩).

وكان اليازوري قد أمر بعمل هذا الفسطاط على نسق فسطاط آخر[١]، كان الخليفة العزيز بالله قد أمر بصنعه لنفسه وأرسل إلى ملك لروم في طلب عمودين له.

ومن نفائس ما نهب من خزائن الخيم مضرب الخليفة الظاهر، وكانت أعمدته وقوائمه من البلور أو الفضة، وقماشه منسوجًا بخيوط الذهب، ونفقة إتمامه أربعة عشر ألف دينار، ومنها فسطاط كبير آخر صنعه بحلب أبو الحسن علي بن أحمد، المعروف بابن الأيسر في منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، وبلغت نفقة صنعه ونقشه ثلاثين ألف دينار، ونقل المقريزي أن عموده كان أطول من صواري الروم البنادقة، وأنه كان يحتاج إلى مائتي رجل لنصبه وإعداده.

ومهما يكن من شيء، فإن وجود هذا العدد الكثير من الخيم في خزائن الفاطميين أمر يسهل تصوره إذا تذكرنا ما كتبه ابن خلدون في المقدمة، فقد قال هذا الفيلسوف الاجتماعي الكبير:

«اعلم أن من شارات الملك وترفه اتخاذ الأخبية والفساطيط والفازات من ثياب الكتان والصوف والقطن، بجدل الكتان والقطن فيباهي بها في الأسفار، وتنوع منها الألوان ما بين كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة واليسار»[٢].

---

(١) يذكر المقريزي أنه كان يسمى «قاتولًا» لأنه ما نصب قط إلا وقتل رجلًا أو رجلين ممن يتولون نصبه. وكذلك أطلق اسم القاتول على خيمة للأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش كانت تسمى أولًا خيمة الفرح. راجع: ابن ميسر ص٦٠، وصبح الأعشى للقلقشندي (٢/ ١٣١)، والبحث الذي نشره الأستاذ فييت (Wiet) عن ابن ميسر في المجلة الأسيوية (Journal Asiatique) ص١٠٩.

(٢) مقدمة ابن خلدون (طبعة عبد الرحمن محمد بميدان الأزهر بمصر) ص١٨٧.

وقد كتب ابن خلدون في هذه المناسبة أن أكثر العرب كانوا في أول عهدهم بادين، فلما تفننوا في مذاهب الحضارة والبذخ ونزلوا المدن والأمصار، انتقلوا من سكنى الخيام إلى سكنى القصور، ولكنهم اتخذوا للسكنى في أسفارهم ثياب الكتان يستعملون منها بيوتًا مختلفة الأشكال يبدعون في زينتها.

خزانة البنود[١]

ذكر المقريزي أن الذي بناها هو الخليفة القاهر لإعزاز دين الله، وأنها كانت تشتمل على كميات كبيرة من الرايات والأعلام وآلات الحرب، وأن الخليفة الظاهر اتخذ فيها ثلاثة آلاف صانع مبرزين في سائر الصنائع[٢].

ونحن نظن أنها كانت جزءًا من خزائن السلاح، أو كانت ملحقة بها، أو كانت خزانة عامة تجمع بعض نفائس القصور الفاطمية؛ لأن المقريزي كتب عما كان فيها

---

(١) البند: العلم الكبير أو اللواء أو الراية. وقد كان لكل قبيلة لواؤها في الجاهلية يتميز عن غيره بلونه وأحيانًا بشكله، وكان يربط في طرف الرمح ويحمله سيد القبيلة أو أحد المقدمين فيها. وكان للنبي راية سوداء اسمها العقاب وكانت له رايات أخرى بيضاء، وكانت أعلام الأمويين بيضاء والعلويين خضراء والعباسيين سوداء، ولم تستخدم الأعلام في القتال فحسب، بل كان لها شأن خطير في الاحتفالات الدينية، وكان القوم ينسجون عليها الشهادتين وبعض الآيات القرآنية أو العبارات الدينية كما اعتادوا أن يضعوا علمين على جانبي المنبر في صلاة الجمعة، وكان من التقاليد المتبعة في تتويج الخلفاء في بعض الأحيان أن يؤتى بلواء يعقده الخليفة بيده ثم يتسلم خاتم الخلافة. انظر: تجارب الأمم لمسكويه (٥/ ٤٥٣-٤٥٤)، و(Mez: Die Renaissance des Islams) ص١٣٠، ١٣١. وقد ذكر المقريزي أن البنود كانت تعرف في عصر المماليك باسم العصائب السلطانية. وما يجدر الإشارة إليه هنا عادة حمل أعلام المهزومين منكسة أو مقلوبة، فقيل مثلًا: إن السلطان بيبرس بعد أن استولى على أرسوف دخل القاهرة ظافرًا وبين يديه أسرى الفرنج وبيدهم أعلامهم منكسة. انظر: (Van Berchem: Corpus) (١/ ٥٥٠، ٥٥١). وكان من ألقاب السلطان قايتباي: صاحب السيف والقلم والبند والعلم. انظر: المصدر السابق ص٥٠١، ومن ألقاب السلطان المؤيد أبو النصر: صاحب العلمين (المصدر السابق ص٣٣٨). انظر في الفرق بين بند وعلم وراية ولواء: نهاية الأرب للنويري (٦/ ٢١٨).

(٢) خطط المقريزي (١/ ٣٥٥، ٤٢٣)، قارن (Wiet: Précis de l'histoire d'Egypte) ص١٨٣.

من درق، وسيوف، ورماح، ونشاب، وقضب من الذهب والفضة، وثياب مذهبة، وسروج، ولجم، وغير ذلك من الأدوات المختلفة[1].

وإذا صح ما نقله المقريزي عن كتاب لذخائر والتحف، فإن الجند لم ينهبوا محتويات هذه الخزانة؛ إذ إن الخليفة المستنصر باللّه وهبها لسعد الدولة المعروف بسلام عليك، وحدث في أثناء نقلها ليلًا أن سقط من أحد الفراشين شمع موقد، فاحترق جميع ما في الخزانة وكان ذلك في اليوم السادس من صفر سنة إحدى وستين وأربعمائة (١٠٦٨م).

ويقال: إن سعد الدولة وجد فيها ألفًا وتسعمائة درقة، وغير ذلك من آلات الحرب، وقضب الفضة والذهب والبنود.

ونقل المقريزي أن الذي كان ينفق على هذه الخزانة في كل سنة من سبعين ألف دينار إلى ثمانين ألف دينار، وذلك منذ بنى القائد جوهر القصر الكبير سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة حتى ذهبت طعمة للنيران سنة (٤٦١هـ) إلا جزءًا منها عاد إليه عماره تدريجيًا حتى استطاع الخليفة أن يخرج منه ذات مرة خمسة عشر ألف سيف محلاة بالجوهر.

والمعروف أن خزانة البنود أو جزءًا كبيرًا منها جعل بعد هذا الحريق سجنًا للأمراء والوزراء والأعيان حتى سقطت الدولة لفاطمية؛ واتخذها الأيوبيون كذلك

(١) الواقع أننا لاحظنا أن المؤرخين لا يحددون تمامًا محتويات الخزائن المختلفة، ولعل ذلك راجعًا إلى طبيعتها وإلى أنها كانت تتشابه في بعض محتوياتها، ولا نظن أن هناك تهاونًا وعدم دقة من المؤرخين في هذا الشأن؛ لأننا نرى هذا الخلط أيضًا في وصف محتويات الخزائن الأيوبية والمملوكية وقد كانت قريبة العهد بهم.

سجنًا يعتقلون فيه الأمراء والمماليك، كما اتخذها سلاطين المماليك بعد ذلك مأوى للأسرى الفرنج[1].

(١) خطط المقريزي (١/ ٤٢٥).

كنوز الفاطميين بعد الشدّة العظمى

تحدثنا حتى الآن عما في قصور الفواطم من كنوز فنية نهبها الجند في الشدة العظمى، وبقي أن نذكر أن ناصر الدولة الذي كان تائدًا للجيش واستبد بالأمر ثار عليه الجنود الترك، واضطروه إلى الفرار إلى الإسكندرية، حيث جمع جيشًا من الجند الترك الآخرين ومن العرب وعاث به فسادًا في الدلتا، مفسدًا في الترع والجسور، ومانعًا الأطعمة عن مصر، وكان ذلك مع انخفاض النيل في بعض السنين سبب ما حل بالبلاد من القحط والمسغبة.

واستطاع ناصر الدولة أن يدخل القاهرة سنة (٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م)، واستولى على مقاليد الأمور، ولعله عقد العزم على عزل المستنصر، والخطبة في القاهرة للقائم الخليفة العباسي بعد أن فعل ذلك في الدلتا؛ ولكن أقرانه ومنافسيه من رؤساء الجند الترك قتلوه هو وأقاربه[1]، وخلا الجو للمستنصر فبعث إلى بدر الجمالي حاكم عكا يطلب إليه القدوم إلى مصر لإصلاح شأنها، وتطهيرها من عناصر الثورة والفساد، وقام بدر الجمالي بمهمته خير قيام فمنحه المستنصر لقب أمير الجيوش وماتا في سنة واحدة[2] (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م).

وكان الذين جاءوا من بعد المستنصر من اخلفاء الفاطميين ضعافًا، فكان الوزراء هم أصحاب الأمر والنهي في البلاد، على أن هذا لم يمنع عودة الرخاء إلى

---

(١) بل الظاهر أنه جعل الخطبة للخليفة العباسي في فترة قصيرة من الزمن. راجع: (Van Berchem: Corpus, Egypte) (١/ ٣٢).

(٢) راجع: المصدر نفسه (١/ ٣٤)، و(Hautecœur et Wiet: Les Mosquées du Caire) ص٣٤، ٣٥، و(Wiet: Précis) ص١٨٦ وما بعدها.

البلاد شيئًا فشيئًا، وعظمت ثروة الوزراء كما يظهر من وصف ابن ميسر لما خلفه الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي وصفًا يذكرنا بما كان في قصور الفاطميين قبل الشدة العظمى من آنية نفيسة، وجواهر غالية، وأقمشة فاخرة، وخزف بديع، وبلور ثمين.

وقد وصف ابن ميسر مجلس شراب الأفضل، وقال: إنه كان يشتمل على تماثيل لثمان جوارٍ متقابلات: أربع منهن بيض من كافور، وأربع سود من عنبر، وكن مرتديات أفخر الثياب، وممسكات بالجواهر الكريمة ومتزينات بالحلي الثمينة[1]، مما يُذكِّر ببيت الذهب الذي شيده خمارويه وطلي حيطانه بالذهب، وجعل فيه تماثيل حظاياه، والمغنيات اللاتي تغنيه، وجعل على رءوسهن الأكاليل من الذهب وزينهن بأصناف الجواهر[2].

ومما كتبه ابن ميسر في وصف ما خلفه الأفضل أن الخليفة الآمر أخذ في نقل ما بدار وزيره إلى القصر، واستمر ذلك مدة شهرين وأيام، وذكر العامل على خزانة القصر أن ما وجد في دار الأفضل ستة آلاف ألف وأربعمائة ألف دينار، وورق قيمته مائتا ألف وعشرون ألف دينار، وسبعمائة طبق فضة وذهب، ومن الصحاف والمشارب والأباريق والقدور والزبادي والقطع من الذهب والفضة المختلفة الأجناس ما لا يحصى كثرة، ومن براني الصيني الكبار المملوءة بالجواهر التي بعضها

---

(١) يذكر ابن ميسر ص٥٨ أن هذه التماثيل كانت تنكس رءوسها حين يدخل مجلسه، فإذا جلس في صدر المجلس استوين قائمات. ولسنا ندري أي الحيل الميكانيكية استخدموها للوصول إلى هذا.

(٢) انظر: خطط المقريزي (١/ ٣١٦، ٣١٧) و(Zaky Mohamed Hassan: Les Tulunides) ص١٢٧، ٣٠٩.

منظوم كالسبح، وبعضها منثور شيء كثير، ووجد به من أصناف الديباج تسعون ألف ثوب، وثلاث خزائن كبار مملوءة صناديق، كلها دبيق وشرب عمل بتنيس ودمياط، على كل صندوق شرح ما فيه وجنسه، ووجد له من المقاطع، والستور، والفرش، والمطارح، والمخاد، والمساند، والديباج، والدبيق الحرير، والذهب على اختلاف أجناسها أربع حجر، كل حجرة مملوءة من هذا الجنس[1].

بينما كتب ابن خلكان أن الأفضل خلف من الأموال ما لم يسمع بمثله، ومما تركه خمسة وسبعون ألف ثوب من الديباج، وثلاثين راحلة من أحقاق الذهب العراقي، ودواة ذهبية فيها جوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار، وخمسمائة صندوق من الأقمشة النفيسة المنسوجة في تنيس ودمياط، ومائة مسمار من ذهب في عشرة مجالس له، وعلى كل مسمار منديل مذهب بلون من الألوان، وكان الأفضل يلبس منها ما يشاء[2].

وكتب الأبشيهي أن الأفضل «لما مات في شهر رمضان سنة (٥١٥هـ) خلف بعده مائة ألف ألف دينار، ومن الدراهم مائة وخمسين أردبًا، وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج، ودواة من الذهب، قوِّم ما عليها من الجواهر والياقوت بمائتي ألف دينار، وعشرة بيوت في كل بيت منها مسمار ذهب قيمته مائة دينار، على كل مسمار عمامة ملونة، وخلف كعبة عنبر يجعل عليه ثيابه إذا نزعها، وخلف عشر صناديق مملوءة من الجوهر الفائق الذي لا يوجد مثله، وخلف خمسمائة صندوق كبار لكسوة حشمه، وخلف من الزبادي الصيني والبلور المحكم وسق مائة جمل، وخلف عشرة

(١) راجع: أخبار مصر ص٥٨، وانظر: (Hautecœur et Wiet: Mosquées) ص٧٤.
(٢) وفيات الأعيان (١/ ٢٧٩).

آلاف ملعقة فضة، وثلاثة آلاف ملعقة ذهب، وعشرة آلاف زبدية فضة كبار وصغار، وأربع قدور ذهبًا، كل قدر وزنها مائة رطل، وسبعمائة جام ذهبًا بفصوص زمرد، وألف خريطة مملوءة دراهم خارجًا عن الأرادب، في كل خريطة عشرة آلاف درهم، وخلف من الخدم والرقيق، والخيل، والبغال، والجمال، وحلي النساء ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى، وخلف ألف حسكة[١] ذهبًا، وألفي حسكة فضة، وثلاثة آلاف نرجسة ذهبًا، وخمسة آلاف نرجسة فضة، وألف صورة ذهبًا، وألف صورة فضة، منقوشة عمل المغرب، وثلثمائة ثور (شمعدان) ذهبًا، وأربعة آلاف ثور فضة، وخلف من البسط الرومية والأندلسية ما ملأ به خزائن الإيوان، وداخل قصر الزمرد»[٢].

وأكبر الظن أن الوزراء -وهم الحكام الحقيقيون للبلاد في ذلك العصر- لم يكونوا يأبون على الخلفاء جمع الثروة والتحف الفنية. ولا شك في أن خزائن القصور الفاطمية عاد إليها قسط وافر من عمارها قبل الشدة العظمى، وظل يتولى شئونها، والنظر فيها معقودًا لكبير من رجال الدولة[٣].

وقد ذكر ابن ميسر في حوادث سنة (٥٤٢هـ) أن الخليفة الحافظ بعث لظهير الدين صاحب دمشق هدايا وخلعًا وتحفًا[٤]: ثم إننا نستطيع أن نتبين الثروة التي كانت في خزائن الفاطميين عند وفاة العاضد آخر خلفائهم مما كتبه الذهبي في

---

(١) الحسكة: شمعدان من النحاس أو البلور. انظر (Dozy: Supplément aux dictionnaires arabes) (١/ ٢٨٦).

(٢) المستطرف في كل فن مستظرف جزء٢، الباب الحادي والخمسون، ص٤٧.

(٣) المصدر السابق ص٨٦، ٩٥.

(٤) المصدر السابق ص٨٧.

وصف الهدية التي قدمها صلاح الدين إلى نور الدين سنة (٥٦٩) هجرية، وفيها مصاحف بخط مشاهير الكُتَّاب، وأقمشة ثمينة من الديباج، وعقود من الجوهر والأحجار الكريمة، وأباريق من البلور، وأوان من الصيني[١]، فضلًا عن أن المقريزي نفسه ذكر ما كان من أمر القصرين بعد زوال الدولة الفاطمية، وكتب أن صلاح الدين تسلم القصر بما فيه من الخزائن والدواوين وغيرها من الأموال والنفائس وكانت عظيمة الوصف، وفيها مائة صندوق كسوة فاخرة من موشح، ومرصع، وعقود ثمينة، وذخائر فخمة، وجواهر نفيسة وغير ذلك من التحف البديعة[٢].

هذا وقد وصلتنا لحسن الحظ وثيقة خطيرة الشأن، تثبت عظمة القصر الفاطمي وأبهته، حين زاره رسولا الملك عموري (أملريك) سنة (٥٦٢هـ/ ١١٦٧م)؛ ليعقدا معه باسم سيدهما تحالفًا، قوامه أن يدفع الخليفة للصليبيين مائتي ألف دينار معجلة ومثلها مؤجلة، نظير دفاعهم عن مصر وصدهم الأعداء عنها.

وقد وصف غليوم رئيس أساقفة صور[٣] (Guillaume de Tyr) زيارة الرسولين الصليبيين وعبر عن حماسهما وإعجابهما بعظمة ما رأوه وورعة كثير مما

---

(١) انظر: «الفاطميون في مصر» للدكتور حسن إبراهيم ص٢٥٨، ٢٥٩ عن مخطوط للذهبي بالمكتبة البودليان باكسفورد، وراجع أيضًا: السلوك للمقريزي (طبعة الدكتور زيادة) (١٢/ ٥٠، ٥٤، ٥٥).

(٢) الخطط (١/ ٤٩٦).

(٣) مؤرخ الحروب الصليبية ويظن أنه ولد في بيت المقدس من أسرة فرنسية نحو سنة (١١٣٠م)، أما وفاته فكانت بعد سنة (١١٨٣). ويقال: إنه كان أكبر المحرضين على الحرب الصليبية الثالثة بعد أن استولى صلاح الدين على بيت المقدس.

شاهداه. وقد نقل جستاف شلمبرجيه (Gustave Schlumberger) إلى الفرنسية بعض ما كتبه غليوم في هذا الصدد[١]، كما لخص لين بول (Lane-Poole) بعضه في كتابه عن تاريخ مصر[٢]، وكتابه عن صلاح الدين[٣]، ونقل الأستاذ محمد فريد أبو حديد إلى اللغة العربية ما كتبه لين بول عن هذه الزيارة[٤]، وكتب الملازم أول عبد الرحمن زكي نبذة عن هذا الوصف في كتابه «القاهرة»[١].

---

(١) انظر: (Campagenes du Roi Amaury 1er de Jerusalam en Egypte au XII siècle par E. Pauty Les et les Maisons (Custave Schlumberger (1906) ص١١٨-١٢٦، وراجع: (d'époque musulmane au Caire ٣٤، ٣٥.

(٢) انظر: (A History of Egypt in the Middle Ages) ص١٨٠، ١٨١.

(٣) انظر: (Lane-Poole: Saladin) ص٨٦، ٨٧ من الطبعة الجديدة.

(٤) انظر: كتاب صلاح الدين الأيوبي وعصره للأستاذ محمد فريد أبو حديد ص٥٣، ٥٤، حيث ترى الترجمة الآتية لما كتبه لين بول:

«أختير هيوم حاكم قيصرية وجوفري فارس المعبد رسلًا من الملك (أمري)، وقد سار بهم الوزير بنفسه وجعل يقتحم بهم كل رسوم الأوضاع السرية فصار بهم في ممرات خفية وأبواب عليها حراس من أقوياء السودان وكانوا يحيونهم بسيوفهم المجردة حتى بلغوا صحنًا فسيحًا لا سقف له إلا السماء وحوله أقبية قائمة على عمد من الرخام، وكان السقف المزخرف مرصعًا بالذهب مزينًا ببديع الألوان، وأما الأرض فكانت من الفسيفساء البديعة، وقد أخذت تلك المناظر بعيون الفارسين الذين لم يعتد نظرهما أن يقع على مثل هذا الجمال فكانا يريان هنا فوّارة من الرخام تحيط بها الطيور الزاهية التي ليس مثلها في بلاد الغرب، ثم يريان هناك أنواعًا من الحيوان لا مثيل لها إلا أن يصور ألوانها مصور بارع أو يخترع صورتها شاعر ماهر أو يحلم بها في عالم الخيال، وهكذا كانا يريان أشياء لا يريان مثلها في بلادهما إذ هي مما لا يوجد إلا في بلاد الشرق والجنوب، وبعد سير طويل في تعاريج وتلافيف وصلا إلى مكان العرش فأعلن قدومهما عدد عظيم من الحشم يلبسون حللًا بهية، ثم تقدَّم الوزير خالعًا سيفه وقبل الأرض ثلاث مرات كأنما يسجد لله، ثم أعقب ذلك أن انكشفت الستائر الثقيلة فجأة وهي تلمع بما

ونظرًا لأن هذه الوثيقة خطيرة لقدم عهدها، وشائقة لصدورها من مؤرخ مسيحي، فقد آثرنا أن نأتي بالنص الفرنسي الذي لخصها فيه شلمبرجيه، وأن ننقلها إلى العربية بتصرف قليل:

«Les envoyés francs, guidés par Shawer en personne, vivement emus, mais nullement intimidés, furent amenés d'abord á un premier palais «très beau et richement orné» (Guillaume de Tyr le nomme «Cascere» ou «Cascera», c'est-á-dire le Palais du Caire). Ils y trouvèrent de nombreux appariteurs, on dirait aujourd'hui des huissiers qui, l'épée nue, leur firent cortège, les precedent. Conduits par de longues et étroites allées voûtées, tout à fait obscures, «où l'on ne voyait goutte», probablement dans le but de les impressionner advantage, ils se trouvèrent, en revenant à la lumière, devant plusieurs portes successives. Auprès de chancune, de nombreux gardes sarrasins veillaient, qui se levaient aussitôt à l'approche de Shawer et le saluaient respectueusement. Ils débouchèrent ensuite dans une vaste cour découverte qu'entouraient de magnifiques portiques à colonnades, cour toute pavée de marbres de diverses couleurs, avec des rehaussés d'or d'une richesse extraordinaire. «Li chevron en li tref étaient tuit couverts d'or». C'était si beau, si agreeable que l'homme le plus occupé en divers lieux s'y serait arrêté. Une fontaine au centre, par des conduits, d'or et d'argent, amenait de toutes parts de l'eau d'une claret admirable dans des canaux et des basins paves de marbre. Ça et là voletait une infinite variété d'oiseaux des plus rares couleurs, des plus belles espèces, venus des diverses parties d'Orient, «que nul ne les vit qui ne s'en émerveillât, et n edit que vraiment la nature ne jouait quand elle les fit. Les uns parmi ces oiseaux se tenaient près des fontaines, les autres au loin, chacun selon sa nature; chacun avait s nourriture comme il lui convenait». Là, les premiers gardes qui avaient escorté jusqu'ici les guerriers francs prirent conge d'eux. Ils furent aussitôt remplacés par des hauts personages, choisis parmi les intimes familiers memes du khalife, des emirs que l'on appellait «amirauts des charters». Ceux-ci leur firent traverser de nouvelle scours, plus belles encore, puis un jardin si riche et si délicieux que le premier ne leur semblait plus rien. Là, ils virent une menagerie de quadrupeds si estranges «que celui qui en ferait le récit serait accuse des mensonage et que nul peintre, meme en rêve, ne pourrait

---

عليها من ذهب ولؤلؤ، ولاح من خلفها الخليفة وعليه حلل وزينة تزري بما يتجلى به الملوك... إلخ.

(١) انظر: «القاهرة» للملازم أول عبد الرحمن زكي (١/ ٦٩).

façonner de si estranges choses». L'Occident n'avait jamais vu de tells animaux et ne les connaissait que par ouï dire».

Après avoir franchi mainte autre porte, maint detour, rencontrant toujours choses nouvelles qui les ébahissaient daventage, nos preux arrivèrent enfin au Grand Palais, demeure meme du Calife. Celui-là dépassait en somptuosité tout ce qu'ils avaient vu jusque là. Les cours regorgeaient de guerriers sarrasins en armes, vêtus d'armures éclatantes d'or et d'argent, semblant fiers des trésors qu'ils gardaient. On introduisit les chefs francs dans une vaste sale divisée en deux d'une paroi à l'autre par une grande courtine ou tenture de fil d'or et de soie de toutes couleurs parsemée de dessins de bêtes, d'oiseaux, de ens, flamboyant de rubis, d'émeraudes et de mille riches pieces. Personne ne se trouvait dans cette sale. Shawer, cependant, aussitôt entré, se prosterna, adora, puis se releva, puis se prosterna à nouveau, puis déposa l'épée qu'il portrait suspendue à son col. Une troisième fois, il se prosterna dans l'attitude de la plus humble adoration. Alors, soudain, avec la rapidité de l'éclair, la grande tapisserie d'or et de soie qui cachait le fond de la sale, enlevée par des cordes, se redressa vivement comme un voile qui se lève et le Calife enfant (le sultan Al-'Âdid) apparut aux yeux éblouis des envoyés latins: le visage de ce prince était strictement voilé. Il était assis sur un siege d'or, constellé de gemmes et de pierres précieuses».

«وسار السفراء الفرنج يقودهم الوزير شاور بنفسه إلى قصر له رونق وبهجة عظيمان، وفيه زخارف أنيقة نضيرة، وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم جد التأثر، دون أن يتطرق إلى نفوسهم أي خوف أو رهبة، ووجدوا في هذا القصر حراسًا عديدين، وسار الحرَّاس في طليعة الموكب، وسيوفهم مسلولة، وقادوا الفرنج في ممرات طويلة وضيقة، وأقبية حالكة الظلمة، لا يستطيع الإنسان أن يتبين التأثير فيهم. وربما كان المقصود بذلك بعث الهيبة إلى قلوبهم، وزيادة التأثير فيهم. فلما خرجوا إلى النور اعترضتهم أبواب كثيرة متعاقبة، كان يسهر على كل منها عدد من الحرس المسلمين، الذين كانوا ينهضون عند اقتراب شاور، ويحيونه باحترام، ثم وصل الموكب إلى فناء مكشوف، تحيط به أروقة ذات أعمدة، وأرضيته مرصوفة

بأنواع من الرخام متعددة الألوان، وفيها تذهيب خارق العادة بنضارته وبهائه، كما كانت ألواح السقف تزينها الزخارف الذهبية الجميلة.

وكان كل ذلك مونقًا رائعًا، وبهيًّا رائقًا، بحيث لا يملك أشغل الناس بالًا، وأكثرهم همًّا إلا أن يقف للإعجاب به، وكان في وسط الفناء نافورة، يجري الماء الصافي منها في أنابيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام، وكانت ترفرف في الفناء أنواع لا حدَّ لها من الطيور الجميلة، ذات الألوان المفرطة في الندرة، مجلوبة من شتى أنحاء الشرق، ولم يكن أحد يرى هذه الطيور دون أن تصيبه الحيرة والدهشة إعجابًا بها، ودون أن يقول: إن الطبيعة كان تمرح وتلعب، حين كونت هذه المخلوقات الجميلة، ومن هذه الطيور ما كان يلزم النافورة، ومنها ما كان يظل بعيدًا عنها، كل بحسب طبيعته؛ وكان لكل منها من الغذاء ما يوافقه.

وهنا استأذن في الرجوع الحراس الذين كانوا يسيرون في معية الفرسان الفرنج حتى ذلك الوقت، وحل محلهم بعض العظماء من الأمراء المقربين إلى الخليفة نفسه.

وسار هؤلاء الأمراء بالسفيرين الفرنجيين في أدنية جديدة، أشد جمالًا وإبداعًا، ثم إلى حديقة لطيفة وغناء، لم تكن الحديقة الأولى شيئًا بجانبها، ورأوا في هذه الحديقة أنواعًا من الحيوانات ذوات الأربع، غريبة بحيث يتهم المرء بالكذب إذا وصفها، أو تحدَّث عنها، وبحيث لا يستطيع أي مصور أن يتخيل أو أن يحلم بمثل هذه الكائنات العجيبة، فإن الغرب لم ير قط مثل هذه الحيوانات، ولم يكن يعرفها إلا بما كان يسمع من الأقوال.

وبعد أن عبروا أبوابًا عديدة أخرى، وساروا في تعاريج كثيرة؛ كانوا يرون فيها أشياء جديدة تزيدهم دهشة وإعجابًا، وصل الفرنج إلى القصر الكبير، حيث يقطن الخليفة، وفاق هذا القصر كل ما رأوه قبل ذلك، وكانت أفنيته تفيض بالمحاربين المسلمين متقلدين أسلحتهم، وعليهم الزرد والدروع، تلمع بالذهب والفضة، وعليهم سيماء الافتخار بما كانوا يحرسون من الكنوز، وأدخل المبعوثون في قاعة واسعة؛ تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان، وعليها رسوم الحيوان والطيور وبعض صور آدمية، وكانت تلمع بما عليها من الياقوت والزمرد والأحجار النفيسة، ولم يكن في هذه القاعة أحد؛ لكن شاور خرَّ راكعًا فور دخوله، ثم نهض واقفًا، ثم قبَّل الأرض ثانية، وخلع السيف الذي كان يلبسه في عنقه؛ ثم خر ساجدًا مرة ثالثة في ذلة وخشوع كأنه يسجد لله، وارتفعت الحجال فجأة، وانكشفت الستارة الحريرية الذهبية بسرعة البرق، كأنها ملاءة خفيفة وظهر الخليفة الطفل (السلطان العاضد) لأعين الفرنج المبعوثين، وكان على وجه هذا الأمير نقاب يخفيه تمامًا، وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة».

ثم إن هناك شيئًا آخر يشهد بأبهة الحياة الاجتماعية عند الخلفاء والوزراء في آخر العصر الفاطمي، ونقصد بذلك ما جاء على لسان بعض شعرائهم، مثال ذلك: القصيدة التي قالها عمارة اليمني[1] يصف دارًا بناها الصالح طلائع بن رزيك وزير

(١) هو عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان الحكمي ولد بإقليم تهامة في اليمن نحو سنة (٥١٥هـ/ ١١٢١م) وتلقى العلم ثم اشتغل بالتدريس في زبيد واتصل بحلقات الأدب في عدن حتى اضطر إلى ترك اليمن فذهب إلى مكة حاجًّا سنة (٥٤٩هـ/ ١١٥٤م) وندبه أميرها القاسم بن هشام في مهمة له عند الفاطميين وعاد عمارة إلى الحجاز في السنة نفسها، ثم جاء

الخليفة الفائز الفاطمي، ومنها الأبيات الآتية التي تدل على إبداع النقوش في تلك الدار:

أنشأتَ فيها للعيون بدائعًا ... دقّتْ فأذهل حسنها من أبصرا

فمن الرخام مُسَيَّرًا ومُسَهَّمًا ... ومُنَمْنَمًا ومُدَرْهَمًا ومُدَنّرا

قد كان منظرها بهيًّا رائقًا ... فجعلتها بالوشي أبهى منظرا

وسَقَيْتَ من ذَوْبِ النُّضار سُقُوفها ... حتى يكاد نُضارُها أن يَقْطُرا

ألبستها بيض الستور وحمرها ... فأتت كزهر الورد أبيضَ أحمرا

لم يبق نوعٌ صامتٌ أو ناطقٌ ... إلا عدا فيه الجميعُ مُصوَّرا

فيها حدائقُ لم تجدها ديمةٌ ... كلا ولا نَبَتَتْ على وجه الثرى

لم يبدُ فيها الروض إلا مُزْهِرًا ... والنخلُ والرمان إلا مُثمرا

والطير مذ وقعت على أغصانها ... وثمارها لم تستطع أن تنقرا

وبها من الحيوان كل مُشَبّهٍ ... لبس الحرير العبقري مُصَوَّرا

لا تعدم الأبصارُ بين مروجها ... ليثًا ولا ظبيًا بوجرةَ[1] أعفرا

أَنِسَتْ نوافرُ وحشِها لسباعها ... فظباؤها لا تتقي أسد الشرى[2]

مصر ثانية سنة (٥٥١هـ/ ١١٥٦م) مؤديًا رسالة من أميرها إلى الخليفة الفائز الفاطمي؛ ولكن هذا الخليفة ووزيره الصالح طلائع بن رزيك أكرماه واتخذاه شاعرًا لهما فطاب له العيش في مصر ونظم القصائد في مدح الخليفتين الفائز والعاضد ووزرائهما. وعلى الرغم من أنه لم يكن شيعيًا ولا إسماعيليًا فقد كان شديد الميل إلى الفواطم، ولما سقطت دولتهم اشترك في مؤامرة لإسقاط صلاح الدين وإعادة الحكم إلى أسرتهم، وانكشف أمر هذا التدبير الخفي وصلب صلاح الدين عمارة وشركاءه سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م).

(١) وجرة: اسم مكان ببلاد العرب بين مكة والبصرة تسكنه الوحش من الظباء والبقر وغيرهما.

(٢) الشرى: مأسدة بقرب الكوفة.

وكـــأن صـــولتك المخيفـــة أمّنَـــتْ أسرابهـــا ألا تخـــاف فتُـــذْعَرا
وبهـــا زرافـــاتٌ كـــأن رقابهـــا في الطـول ألويـةٌ تـؤم العـسكرا[1]

(١) انظر: كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية لعمارة اليمني (طبعة هرتوج درنبور في باريس سنة ١٨٩٧) ص١٠٢، ١٠٣، وانظر أيضًا: كتاب المنتخب من أدب العرب (جمعه وشرحه طه حسن وأحمد الإسكندري وأحمد أمين وعلي الجارم وعبد العزيز البشري وأحمد ضيف) (١/ ٣٧٧)، وقارن وصف الصور في هذه الدار بوصف المتنبي الرسوم على خيمة سيف الدولة وذلك في الأبيات التي أتينا بها في حديثنا عن التصوير بالقسم الثاني من هذا الكتاب.

تعليق على وصف المقريزي خزائن الفاطميين

ونحن حين نفرغ الآن من إيجاز ما جاء في خطط المقريزي وغيرها من كتب التاريخ عن وصف كنوز المستنصر، لا يسعنا إلا أن نلاحظ ما في حديث المقريزي من دقة وإطناب يدلان على أنه استعان -كما استعان الذين نقل عنهم- بأقوال خبراء ماهرين في الصناعة لهم كفاية في هذا الميدان ولهم اتصال بها يصفونه، ولا غرو فإن هذا الوصف يذكرنا بالبيانات الشاملة (inventaires) التي كانت تكتب بعد عصر النهضة في أوربا عن المجموعات التي كان يمتلكها الأمراء والنبلاء والأثرياء من تحف وعجائب.

ولكن وصف المقريزي قد تظهر فيه مبالغة لا ندهش لها من مؤرخ عربي في عصره؛ بيد أن هذا الوصف في مجموعه صحيح إلى حد كبير، ونحن إن حسبنا حساب ما فيه من المغالاة والمبالغة، بقي لنا شيء كثير، يكفي لأن يكشف لنا عن ثروة البلاد في هذا العصر، وعن ازدهار الصناعات والفنون فيه: ويثبت لنا صحة ذلك كله القليل الذي وصل إلينا من التحف الفاطمية وما نعرفه عن الفنون الفرعية في عصر الفواطم، كما سنرى في القسم الثاني من هذا البحث.

وفضلًا عن ذلك فان هناك نصوصًا تاريخية أخرى تدل على شغف الخلفاء الفاطميين بجمع التحف والآثار، والمعروف أن الخليفة الظاهر كان شديد الاتصال بأبي سعد التستري[1] تاجر التحف الثمينة والآثار: وأن هذا أهدى إليه أَمَة له،

---

(١) نسبة إلى بلدة تستر بإيران، وكان أبو سعد أو أبو سعيد يهوديًا، والمعروف أن أكثر النابهين اليهود كان لهم أسماء عربية مشتقة من أسمائهم اليهودية أو مخالفة لها. انظر: (Jakob Mann: The Jews in Egypt and in Palestine under The Fatinids) (١/ ١٦٨).

أنجب منها الخليفة الظاهر ابنه المستنصر بالله[١]، وبعد وفاة الظاهر كان التستري من أخص المقربين للمستنصر ولوالدته وانتهز هذه الفرصة فألحق بمناصب الدولة كثيرين من أبناء دينه؛ بل واضطهد المسلمين حتى قال أحد شعرائهم:

يهـود هـذا الزمـان قـد بلغـوا ... غايـة آمـالهم وقـد ملكـوا
العِـزَّ فـيهم والمـالُ عنـدهم ... ومـنهم المستـشار والملـكُ
يأهـل مـصر إني قـد نـصحتُ لكـم ... تهـودوا قـد تهـوَّد الفلـك[٢]

وكان الظاهر والمستنصر يحصلان من أبي سعد التستري عليكثير من التحف لخزانات القصر، وكان أبو سعد يقوم بالرحلات الطويلة والأسفار البعيدة لجمع التحف والآثار[٣]. وقد وصف ناصر خسرو قتل التستري وذكر في هذه المناسبة أن الخليفة كان يكلفه بإحضار الأحجار النفيسة له[٤].

ثم إن المقريزي نقل عن ابن الطوير أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله كان يجمع مهرة الصناع، ويلحقهم بخدمة البلاط ومصانع الحكومة، ويفرد لهم مساكن خاصة بهم، كما كان يطلب إلى عماله على الأقاليم أن يرسلوا إليه من يتوسمون فيه الصلاح لمثل هذه الأعمال والصنائع[٥].

---

(١) راجع: خطط المقريزي (١/ ٤٢٤)، والمصدر السابق لجاكوب مان (Mann) (١/ ٧٦) و(Wustenfeld: Geschichte der Fatimiden-Chalifen) ص٢٢٧، وخطط المقريزي طبعة (Wiet) (٢/ ٤٥).

(٢) انظر: كتاب «الفاطميون في مصر» للدكتور حسن إبراهيم ص٢١٠-٢١٢.

(٣) راجع: خطط المقريزي (١/ ٤٢٤)، وراجع: المصدرين السابقين لجاكوب مان (J.Mann) ولوستنفلد (Wustenfold).

(٤) انظر: سفرنامه ص١٥٩، ١٦٠.

(٥) راجع: خطط المقريزي (١/ ٤٤٣).

ولا ريب عندنا أن قسطًا وافرًا من ازدهار الفنون في العصر الفاطمي يرجع إلى سياسة التسامح الديني التي سار عليها الخلفاء الفاطميون -إلا الحاكم- تلك السياسة التي كان صداها مثل الأبيات التي ذكرناها آنفًا ومثل قول أحد الشعراء:

تنصَّرْ فالتنصرُ دينُ حقّ عليه زماننا هذا يدُلّ
وقُلْ بثلاثةٍ عزُّوا وجلّوا وعطِّلْ ما سواهم فهو عطْلُ
فيعقوبُ الوزير أبٌ وهذا الـ ـعزيزُ ابنٌ وروحُ القدس فضلُ[1]

ولكن هذه السياسة أحاطت الخلفاء الفاطميين ببطانة من رجال مثقفين يميلون إلى تعضيد الفنانين كما شجعت هؤلاء على العمل والإنتاج، حتى كان حكم الفاطميين العصر الذهبي للفنون الفرعية على ضفاف النيل[2].

والظاهر أن القاهرة كان بها في أواخر العصر الفاطمي حي سكنته جالية من الصناع الفرنج، ربما أتت بهم إلى مصر سفن الجمهوريات التجارية في شبه جزيرة إيطاليا. وعلى كل حال فقد كتب المقريزي عن المناخ السعيد وهو الوضع الذي كانت فيه طواحين القمح اللازمة لقصور الفاطمية؛ فنقل عن ابن الطوير أن هذا الحي كان مملوءًا بعدد كبير جدًّا من حواصل الخشب والحديد وآلات الأساطيل من الأسلحة المعمولة بيد الفرنج القاطنين فيه، والقنب والكتان والمنجنيقات وغير ذلك من أدوات الصناعة، وقد ظل هذا الحي الصناعي حتى عصر الدولة الأيوبية[3].

---

(١) فضل: هو الفضل بن صالح أحد القواد الفاطميين. راجع: ابن الأثير (٩/ ٤٣، ٤٤).

(٢) انظر: (Wiet: Précis de l'Histoire d'Egypte) ص١٧٣، ١٨١، ٢٠٥-٢١٤.

(٣) انظر: خطط المقريزي (١/ ٤٤٤) و(Hautecœur et Wie:: Mosquées) (١/ ٧٧، ٧٨).

كما أننا لا نشك أيضًا في أن هذا الازدهار الفني الكبير يرجع إلى الثروة التي حصلت عليها البلاد في عصر الفواطم، والتي يكفي لبيان مقدارها قراءة ما كتبه ناصر خسرو في وصف أسواق الفسطاط وأبنية القاهرة وفي وصف عيذاب، وذكر المغارم التي كانت تحصل فيها على البضائع الواردة من اليمن وزنجبار والحبشة.

وكذلك في المصادر التاريخية والأوربية في العصور الوسطى كثير من الأخبار التي تثبت امتداد تجارة الجمهوريات الإيطالية مع الدولة الفاطمية، والأرباح الطائلة التي كان الطرفان يكسبانها من هذه التجارة[١].

كما أننا نعرف أن الإسكندرية كانت لها في ذلك الحين تجارة واسعة مع صقلية والقسطنطينية، وأن التبادل بين مصر والأقطار المجاورة لم يكن في البضائع والمنتجات فحسب، بل كان في رجال الفن أيضًا، فقد كان في مصر إذ ذاك فنانون ذاع صيتهم ووجدت إمضاءات بعضهم على أعمال الفسيفساء التي قاموا بها في مكة، وكان بعضهم يُستدعى للعمل في البلاد الأجنبية[٢].

وكذلك كان الخلفاء الفاطميون ترد إليهم الهدايا النفيسة من عمالهم على الأقاليم، ومن الملوك والأمراء الذين كانوا يبعثون بها خطبًا لودهم، أو عربونًا على صداقتهم، ومن ذلك ما كتبه الأبشيهي[٣] من أن قسطنطين ملك الروم أهدى إلى المستنصر بالله في سنة سبع وثلاثين وأربعمائة هدية عظيمة، اشتملت قيمتها على ثلاثين قنطارًا من الذهب الأحمر، كل قنطار منها عشرة آلاف دينار عربية.

---

(١) انظر: (C.H.Becker: Islamstudien) (١/ ١٨٧).

(٢) انظر: (Wiet. Précis) (٢/ ٢١٣، ٢١٤).

(٣) المستطرف في كل فن مستظرف (٢/ ٥٤).

ومما نعرفه في هذا الشأن أن الوزير البساسيري سير الأموال والتحف من بغداد إلى المستنصر بالله، وكان من جملة من بعث به منديل الخليفة العباسي القائم بأمر الله والشباك الذي كان يجلس فيه ويتكئ عليه، وقد بقي هذا محفوظًا عند الخليفة حتى عمرت دار الوزارة على يد الأفضل بن بدر الجمالي، فجعل هذا الشباك بها يجلس فيه الوزير ويتكئ عليه، وما زال بها إلى أن عمَّر الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الخانقاه الركنية، وأخذ من دار الوزارة أنقاضًا منها الشباك العباسي فجعله في القبة. أما عمامة القائم أو منديله وكذلك رداؤه فما زالا في القصر حتى استولى صلاح الدين على محتوياته فأرسلهما فيما أرسله إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله في بغداد، ومعهما الكتاب الذي كان القائم قد اضطر إلى كتابته على يد وزيره البساسيري، وفيه: أنه لا حق لبني العباس في الخلافة مع وجود بني فاطمة الزهراء[1].

(١) انظر: خطط المقريزي (١/ ٤٣٩).